

رواية

يوجينيا

محمد صلاح

اسم الكتاب: يوجينيا

اسم الكاتب: محمد صلاح

تصميم الغلاف: عبدالله عباس

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:

كافة الحقوق محفوظة للنشر والمؤلف

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقاً لما تحدده قوانين واتفاقيات حقوق الملكية الفكرية.

رواية

يوجينيا

[١]

عقارب الساعة الذهبية الضخمة المثبتة أعلى برج العدل تشير إلى الحادية عشرة من صباح يوم الأحد، هذا اليوم الذي قد يظنه الجاهل بأحوال **الحصاوي** يوماً اعتيادياً تشرق فيه الشمس ثم تدور دورتها الرتيبة في قبة السماء كحجر المقلاع حتى تختفي ببساطة وهدوء دون ضجيج كما ظهرت! لكنه في الواقع يوم مختلف حقاً، حتى الشمس اليوم ليست كحالها في بقية الأيام، المذيع الآن ينفث خبراً عن أكبر انفجار شمسي منذ قرون، هذا القزم الأصفر شد قوسه بقوة وطفق يرمي سهام اللظى الخارجة من جسده البلازمي الهائج مبكراً على كل من يقع في مرماءه، حتى هذا البرج اللعين الذي ينتصب بمفرده منتصف ميدان أطلقوا عليه صفة أسطورية لم يصل البشر إلى معناها الحقيقي فقط كلمة تنطق هكذا "الحرية" دون أن يمارسها أحد في هذه الديار اللعينة المسكونة بالوهم، على كلٍ، أياً كان معنى هذا الاسم الأسطوري الذي أطلقوه على هذا البرج اللعين فإنه غير آبه بأي شيء، منتصب في نشوة نصر زائفة في وقاحة يحسد عليها وسط مدينة مهزومة دون معركة، غلفت الشمس هامته العالية بحمرة فاقعة وكأنها أشعلت فيها النار عقاباً له على وقاحته، يزداد مع ذلك لمعان عقارب الساعة الأنيقة وكأنها تمتص لمعانها بشكل ما من حمرة هامة البرج، تستطيع رؤية بريقها من بعيد، ما يعجب له المرء حقاً أن هذه الساعة الحمقاء تتأنق لأناس لا يأبهون البتة بوظيفتها ولما تشير إليه فهنا لا قيمة للوقت!!.

الشمس الآن أحكمت سيطرتها على المشهد في الميدان وتصب جام غضبها في رتابة على رؤوس الحشود التي تحشر الآن إلى "الحرية" كميدان، حتى بلغوا حد التدافع في موقف مهيب لمن يراه، مؤلم لمن يعيشه!!، تلك الجحافل الجائعة لم تأت لتشارك القوم مظاهر احتفالهم، ولكنهم جاؤوا من أجل كسرة خبز يعطلوا بها فخ الجوع الرابض في أجسادهم ولو لبعض الوقت، ذلك الفخ الذي يشبه قبراً لا ينتهي شبقه لإلتهاام الأجساد، كل الوجوه ناظرة إلى السماء كأنها تغتسل بأشعة الشمس الحارقة، وجوه مصمتة كوجوه التماثيل يكسوها لون أصفر باهت تداخل معه سواد يشبه إلى حد بعيد لون غبار المعارك، تهيمن على الموقف برمته رائحة نفاذة ربما هي التي تدفعهم بشكل عفوي إلى تصويب بصرهم نحو السماء، تلك الأجساد المتلاصقة الباردة على الرغم من تصاعد سخونة الجو -ربما لتعطشها للطعام- دعاها إلى المجيء إلى هنا اعلان أذاعه التلفزيون الرسمي لم يبق مجالاً للشك في أنفسهم أن كل من سيشاهد حفل تنصيب الرئيس الجديد في ميدان الحرية يقيناً سيحصل على وجبة جافة بعد خضوعه لمسح حدقة عينه ضوئياً للتعرف على كوده الوطني بمجرد انتهاء الحفل الذي وصفه الإعلان بالتاريخي!!.

شعب الحساوي -مثل غيره في عالم بعضه عالية على بعض- يقات على ما لا يزرع ولا يصنع، ومع ذلك يملأ جو المكان هتافات ترددها حناجر مكبوتة من الجوع يخرج منها أصوات مكتومة تشبه أنين جرحى المعارك: "عاش السيد الرئيس"، "يحيا السيد الرئيس"، لا أحد يعلم لماذا الاسم الحقيقي للرئيس يظل مبهماً في الحساوي فإسمه فقط "السيد الرئيس"؟!، كما لا يعلم أحد حقاً لماذا الحياة والسيادة حكرأ على الرئيس وحده دون غيره في هذه البلاد البلهاء!!.

بعد وقت طويل من الهاتف حملت الشاشات المنتشرة في كل أرجاء المكان صورة لشاب في مطلع العقد الثالث من عمره تبدو عليه علامات الأناقة تكسو وجهه حمرة رائقة جاء لتوه ليحكم شعباً معظمهم من الجياع، يقف في شموخ كبرج العدل الوقح، يزيح بيده خصلات من شعره الكثيف الأسود كلما تهادت بفعل نسيمات هواء المكيفات التي تحيط به في الأعلى على جبينه الواسع اللامع الذي يبدو كصفحة ماء تعكس ضوء النهار، يحاول باستمرار أن يحافظ على علامات الوقار المصطنع التي يحتاج إليها رئيس جديد يتلو كلمات القسم في رتابة مملّة، خلف رئيس مجلس الأعيان الجالس خلف منضدة عالية وضع عليها كتاب يقال له "الدستور" في حين يرفع ذلك الشاب الوسيم يده اليسرى بمحاذاة كتفه ويده الأخرى وضعت على هذا الكتاب اللعين!!.

قوامه الممشوق وطوله الفارع ووجه الممتلئ وحاجباه المنتصبان كقوسين فوق عينيه الزرقاء اللتان تشعان بالزهو والكبرياء وكثير من الغرور، وأنفه الدقيق الجميل وشفته المكنزة الحمراء تؤكدان أنه بلغ قمة الوسامة بل والجمال طبقاً للمقاييس التي وضعت في الحساوي وكأنه صنع صناعةً لا خلقاً يأتي من اندماج حيوان منوي وبويضة يحملان صفات جميع الأسلاف؟!، كل الإيماءات ونبرات الصوت الصادرة عنه تشي بضحالة خبرة وفهم ليس لمنصبه الجديد ومجال السياسة في هذا البلد فحسب بل في الحياة أيضاً، شاب في مقتبل العمر كان عليه أن يكافح ليجد له مقعداً في شوارع الحساوي ينظر من خلاله إلى المقاعد الكثيرة الوثيرة في القصر لا أحد يعرف كيف جيء به إلى هذا الكرسي متخطياً الجميع!!

الشاب الرئيس، أو الرئيس الشاب يتلو الآن كلمات القسم ويعلق عيناه بالدكتور جمال أبو النواس دون غيره، لأنه ربما فهم غريزياً أن هذا العجوز وحده هو الذي يعرف لماذا جيء به إلى هنا وهو أيضاً الذي يضمن له البقاء أطول مدة ممكنة في السلطة، فحاكم الحساوي يتم اختياره لمرة واحدة يظل بعدها وطوال حياته رئيساً متوجاً بلا منازع، وربما حكمها بعد مماته!!

مراسم التنصيب الجارية تشي بالتترف الذي تعيش فيه هذه البلاد فهي لا تقل أبهة عن حفل تنصيب ملوك أغنى دولة في العالم، ومع ذلك لا يجد غالبية مواطني الحساوي كسرة خبز تقيهم ألم المعدة الخاوية، وهو ما يعني أن الحساوي تضم أكثر من دولة وأكثر من شعب لا علاقة لهم ببعضهم إطلاقاً، وما تعجب حقاً له في هذا البلد تلك العبارات الرنانة التي تتردد في شوارعها كطبول كليلة ودمنة مثل: أن هذا البلد غني وهناك خطة لإعادة توزيع الثروة، ننحاز لمحدودي الدخل، عجلة التنمية بدأت ولن يستطيع أحد إيقافها، جميعها تبقى مجرد آبار مشيدة لا ماء فيها، قصور خاوية على عروشها، مبنى عاجز عن أي فعل، فهذه الكلمات لا تخرج من عبارتها المحكمة المكونة من مجرد حروف لا حراك فيها، وتظل الثروة مقصورة على تلك القشرة الرقيقة التي تملك المجتمع والناس في الحساوي.

على كل، الدكتور أبو نواس كما يسميه أعضاء فريقه البحثي رجل قصير القامة غير متناسق الجسد يبدو رأسه كمستطيل من الجلد الأملس فارغ تماماً من أي شعر إلا من شريط ضيق يحاذي أذنيه، عيناه واسعتان وأنفه كبير تبرز من كلتا فتحتيه شعيرات كثيفة، وفمه الكبير مع أنفه يمثلان أبرز معالم وجهه، أما يداه ورجلاه يترأى للناظر إليه أنهما متشابهتان عريض الظهر، لكنه يحظى بالكثير من اهتمام الرؤساء الجدد فقط ويقل هذا الاهتمام مع الزمن حتى يتلاشى، وهو مثل الرئيس لا يخلو منصبه إلا بوفاته -في الحقيقة كل المناصب في الحساوي هكذا- وتورث أيضاً إلى الأبناء والأحفاد عند الحاجة، ولكن لا أحد يكثرث للأمر، وعلى الرغم من أنه في السبعين من عمره إلا أنه يملك حيوية ونشاط شاب في العشرين، متوقد الدهاء هادئ الطباع، يرسم على وجهه تعبيرات جامدة تشعر فيها ببرودة الصقيع لا يمكنك تفسيرها يشبه بطريقة مباشرة لوح ثلج غطى وجه بحيرة ساكنة في الظاهر.

ساد تقليد في الحساوي أن رئيس العلماء وهو أبو النواس بالطبع، يتوجه نحو الرئيس الجديد بعد أدائه اليمين الدستورية، بينما يتجه الأخير نحو المنصة لإلقاء خطاب التنصيب، ليسأله عن طبيعة الشعب الذي يريد أن يحكمه.

بمجرد أن يقول الرئيس نوع شعبه تبدأ تجارب العلماء على "بشر التجارب" وهم فئة من المخلوقات البشرية لا حق لهم حتى في الحياة لن تجدهم سوى في الحساوي يتم تصنيعهم مخبرياً كما يشاع ليخضعوا لتجارب إنتاج الشعب الجديد، هذه التجارب التي تتسارع

وتيرتها خلال المائة يوم الأولى من فترة الرئاسة التي تتجدد من تلقاء نفسها، حتى يتم إعادة تدوير وإنتاج الشعب كما يحبه الرئيس، الرئيس الجديد خلال أشهر حكمه الأولى لا يأبه لشئون البلاد فتلك أمور تافهة، ولكنه يضع جل تركيزه في العادة على متابعة نتائج التجارب من أجل إنتاج شعبه الجديد.

أصبح لدى فريق العلماء نموذج معين أفرزته كثرة تجارب إنتاج الشعب وأكد ثباته في نسق من الاختيارات المتكررة للرؤساء، حتى أصبح فريق العلماء يجرون رهان يشاركون فيه بمبالغ كبيرة للتنبؤ بنوع الحيوان الذي سيختاره الرئيس لفرط ثقته في النموذج الذي أسموه "رأي الرئيس في الشعب" لثقته أن الاختيار لن يخرج عنه إطلاقاً.

فالنموذج أثبت نجاعته في التنبؤ، والإحصائيات تثبت أن الشعب في الحساوي إما حمير أو كلاب خلال المائة عام الماضية.

لكن في هذه اللحظة الفارقة في حياة شعب الحساوي والرئيس بين المنصدة والمنصة يتأهب لإلقاء الخطاب الحماسي على الشعب المحتشد في الميدان من أجل لقمة عيش تسد فح الجوع القابض على جهازهم الهضمي لا لسماع الخطاب أو المشاركة في التنصيب فتلك أمور لا تعنيهم، وبالطبع الشعب الآن لا يعلم أنه يوشك أن يتغير بآخر نتيجة اختيار الرئيس لنوع حيوانه المفضل الذي يريد أن يحكمه، ولو علم الشعب ما اكرث لذلك، فالشعب الآن مشغول بجوعه عن العالم!.

الآن اقترب الدكتور أبو النواس في هدوء من الرئيس وسأله السؤال التقليدي.

— فخامة الرئيس، ما نوع الشعب الذي تريد أن تحكمه؟

انحنى الرئيس في هدوء بينما يلوح بيده في حركة مسرحية ليصل بفمه إلى أقرب مسافة ممكنة من أذن رئيس العلماء، ليسمعه ما يقول مع أنه يعرف السؤال مسبقاً ويجهز له الإجابة ولكنه البروتوكول! وقال وهو يرسم ابتسامة عريضة.

— دجاج

ظهرت علامات الدهشة على وجه أبو النواس ونظر لمن حوله غير مستوعب ما سمعه للتو، وظن أن الرئيس ربما فهم السؤال على أنه نوع وجبته المفضلة، ولكن الرئيس بادره قائلاً:

— أريد شعباً من الدجاجات لا ديوك بينهن.

ثم استكمل حديثه قائلاً: لا تسيء فهمي أريد الرجال والنساء في هذا البلد يملكون صفات الدجاجة وليس الديك، لو ظهر ديك واحد في هذا الشعب سأمر بحبسك مدى الحياة، فهمتني؟!

يحاول الدكتور أبو النواس عبثاً في هذه اللحظة إخفاء علامات دهشته من اختيار الرئيس، كما يحاول جاهداً أن يمنع علامات الحيرة من وقاحة الرئيس أن تظهر، هو الآن كمن يصارع مجموعة من الثيران كلما تحاشى ضربة قرن من هذا باغته آخر بقرونه لكنه يملك

ميزة ربما تكون وحدها سبباً في وجوده في منصبه حتى الآن ألا وهي أنه يستطيع تحديد أولوياته والتركيز على أهمها فوراً، ولذا شغل نفسه بالمعضلة البيولوجية التي تنتظره، فهو يعلم بخبرته أن تحويل شعباً من الحمير -وهو اختيار الرئيس السابق- إلى "دجاج" لأمر معقد فعلاً، الحمار حيوان والإنسان في الحساوي كذلك ولكن الدجاج من الطيور، وهي في نظره معضلة بيولوجية ونفسية تحولت إلى كتلة ضخمة من الأسئلة انحدرت فجأة من مكان ما في اللاوعي لديه إلى بؤرة الوعي فأصابته بنوبة صدادٍ حاد في هذه اللحظة المشحونة بالكثير من المفاجآت والاحتمالات، هو رجل علم يوقن بأن الجدل لا طائل منه سوى ضياع مزيد من الوقت في أشياء لا تفيد إطلاقاً، كما أنه تعلم من تجاربه أن الرئيس دائماً على حق وأنه سيلبي ما طلبه منه مهما كلفه الأمر، والنتيجة الوحيدة التي سيعمل من أجلها فقط هي أن يجد طريقة مثالية تمكنه من تحويل شعب من حمير إلى دجاج خلال أقل من مائة يوم.

لكنه كلما عزم على الانصراف عادت كتلة الأسئلة إلى الاصطدام بمسارات مخه العصبية، فيعود ليسأل نفسه من جديد:

— لكن كيف؟!

أقلقته في هذه اللحظة حقاً هواجس علمية مقبلة تؤكد جميعها أن التحول من هذا إلى ذاك مستحيل علمياً، يطرد الهواجس بسرعة وهو يخرج هاتفه المحمول المتصل بالأقمار الصناعية ويعبث في أزراره في هدوء ويبداً في الحديث إلى أحد ما قائلاً:

— فخامته، يريد شعباً من الدجاجات خالي من أي صفات ذكورية

ويصمت برهة كأنها الدهر، ثم يستكمل حديثه بانفعال واضح بعد أن يطلق هواء الزفير بكثافة عبر أنفه الواسع الكبير وهو يحرك يديه كنايةً عن الدهشة والتعجب:

— لا أردي!! سأحضر حالاً إلى المختبر لعقد اجتماع طارئ لنرى كيف سنحول الحمير إلى دجاج!!

ثم يصمت طويلاً حتى يخيل إليك أنه لن ينطق مجدداً من هول الصدمة، ثم يقوا فجأةً وبغنف:

— هذا صحيح، ولكن هذه إرادة الرئيس ويجب أن تنفذ.

أنزل أبو النواس الهاتف من جانب أذنه بحركة حادة ونظر إليه وهو يهز رأسه، وتبدو على وجهه نفس التعبيرات الجامدة الباردة التي لا يمكن تفسيرها ثم أدار ظهره للحشود التي تهتف بحياة الرئيس والحصاوي ولا يدرون ما تخبؤه لهم قابل الأيام.

خرج أبو النواس من القصر راكباً سيارته الفارهة وسط موكب لا يقل في ضخامته عن موكب الرئيس، شق موكبه هذا الطريق عبر الحشود المتراسة في الطرقات الفاصلة بين مبنى الرئاسة المطل على ميدان الحرية والمختبر، هذه الجموع ترفع لافتات التأييد والحب والأمل في مستقبل مشرق!! صوت الرئيس الجديد يصل إلى أذنه عبر مذياع السيارة تحمل نبراته كثير من النشوة في حين تملأ الثقة كلماته

الوردية التي تعد الناس بأحلام لا يمكن تخيلها وليس تحقيقها، وهم يرددون نموت نموت ليحيا الرئيس.

لكن قطعت جملة قالها الرئيس حبل تفكيره في تحويل الشعب ومعضلته البيولوجية حين قال بحماسة بالغة:

— أعد شعب الحساوي بأنني سأقضي على البطالة في أول أسبوع من حكمي وهذا قرار وليس أمنية.

لتهيج الجموع المثخنة بألم الجوع هياج الحمير في غير وعي لما يدبر لها وراء الوعود، وتساءل أبو النواس في نفسه بعدما ألقى برأسه على الكرسي أمامه قائلاً:

— كيف يعد الرئيس الشعب بهذا المستحيل، لتحويل الشعب إلى عصافير وليس دجاج أهون من قطع وعد مثل هذا، يبدو أنه يوم القفز في المجهول!

وصلت السيارة إلى الباب الرئيسي للمختبرات الوطنية أو ما يطلق عليه "عرين أبو النواس"، ترجل منها ودخل مسرعاً إلى حيث المصعد الخاص به الذي انطلق إلى الطابق الأربعين ليجد جميع العلماء في انتظاره جالسين في قاعة الاجتماعات الكبيرة وكأن على رؤوسهم الطير ينظر كل منهم إلى ملف تراصت فيه الأوراق فوق بعضها في رتابة مملة.

دخل أبو النواس وجلس ولم يشعر به أحد فقال بصوته المرتفع:

— ماذا أنتم فاعلون؟

فأجابه نائبه الدكتور إبراهيم أبو النصر:

— في الحقيقة نحن في غاية الحيرة، ولا ندري كيف ستسعدنا الكيمياء الحيوية وعلوم العقاقير وعلوم الأحياء في هذه المعضلة.

فعلق الدكتور ناصر الرشيد وهو يمسح قطرات من العرق ظهرت على جبينه الواسع ورأسه الأصلع:

— الحمير من الناحية السيكلوجية والسلوكية تختلف تماماً عن الدجاج، وهو ما يحتاج إلى طرق سيطرة مبتكرة غير التي اعتدنا استخدامها في آخر مائة عام.

فأجاب الدكتور أبو النواس:

— لا مناص من ابتكار طريقة للتحويل.

فقال الدكتور بهي السيد والحيرة تملأ وجهه الممتلئ بينما عيناه الزائغة تجوب أركان القاعة:

— أنا لا أدري هل أجساد بشر التجارب لدينا ستتحمّل هذا التغير الحاد أم لا؟.

فأجابه بحدة الدكتور أبو النواس:

— وبالطبع لا يمكننا استيراد بشر تجارب من أي بلد آخر، لأن هؤلاء هم المنتج الوحيد الذي تنفرد به الحصاوي في العالم.

فسأله الدكتور عزام أبو العزائم:

— هل يمكنك إقناع الرئيس بالعدول عن هذا القرار؟

فتنهذ أبو النواس ثم وضع يده على خده كنايةً عن اليأس قائلاً:

— الفترة المقبلة كثيرة المفاجآت، وعلينا العمل بأقصى طاقة لتنفيذ
رغبة الرئيس، وعلى الجانب الآخر سأحاول إقناعه باختيار أحد أنواع
الحيوانات.

لم يكمل أبو النواس حديثه حتى علا رنين هاتفه المحمول
الموضوع أمامه على الطاولة فتغيرت تعبيرات وجهه نحو الدهشة
وهو يلتقط الهاتف سريعاً، وقال بعدما وقف على عجل وتوجه إلى
خارج قاعة الاجتماعات:

— فخامة الرئيس أنا كنت أفكر فيك.

فأجابه الرئيس:

— دعك من هذا واترك كل ما في يدك واحضر حالاً.

فقال أبو النواس في حزم:

— خمس دقائق وأكون أمام فخامتكم.

أنزل الهاتف وعلامات التعجب والدهشة تملآن وجهه، ثم دخل
إلى القاعة من جديد وأبلغ الحاضرين بوجهته، وأمرهم بالعمل بأقصى
ما يستطيعون لخلق شعب من الدجاج.

[٢]

رسم الرئيس على وجهه ابتسامة تشعر وكأنها غريب حل في مكان لا يعرف فيه أحد، لمح أبو النواس ذلك لحظة دخوله المكتب الرئاسي، شعر أنه مكر مغلف بهذه الابتسامة استطاع أن يرى تحتها وجه الشاب الحقيقي الذي تسكنه قوة ملعونة تغطي على قسماته الوسيمة وحولته إلى وجه شرير خرج لتوه من إحدى روايات شكسبير العتيقة، ذكر ذلك أبو النواس بالعجرفة التي ملأت كلماته وزهو الانتصار المزعوم والنشوة التي كست زوايا وجهه خلال خطاب التنصيب، وتذكر الوعود المستحيلة التي قطعها على نفسه، كل ذلك جعله يستغرق في تفكير عميق أنساه المكان الذي يقف فيه والزمن الذي يدفع كل شيء من حوله.

أشار الرئيس له بالجلوس وهو يقول بصوت قوي:

— أريد شعباً من الدجاج ولا ضرر في أن يكون بينهم بعض النعاج

ثم أطلق ضحكة مدوية، وكأنه يمزح مع صديق قديم.

ليعلق أبو النواس في جدية:

— ولكن هذه النوعيات من الطيور والحيوانات لا يوجد بينها معارضة.

كلمة "معارضة" قطعت ضحكة الرئيس الصاخبة وجذبت انتباهه ونجحت في فض الابتسامة لتكشف عن وجه الشرير الشيكسبيري الذي غلف في هذه اللحظة بعلامات من الضيق تزداد حدتها مع مرور الوقت، لتخيم لحظات صمت تشحن رأس أبي النواس بكثير من الأسئلة لم يوقفها سوى انفجار الرئيس صارخا كموجة تسونامي عنيفة ظهرت للعيان بعد حركة جزر شديدة سحب بساط البحر عن مكانه المعتاد إلى المدى البعيد:

— معارضة؟!، وأي معارضة يمكنها أن تقف في وجهي!!؟

فأجابه أبو النواس في هدوء:

— عفوا يا فخامة الرئيس. لبقاء سيادتكم في المنصب يلزمك معارضة، هذا هو القانون السائد.

عاد الصمت من جديد ليخيم ما زاد توتر الموقف، حتى بادر الرئيس في هدوء مصطنع:

— لنفترض أن القانون السائد قبل انتخابي رئيساً للحصاوي هو وجود معارضة.

كلمات الرئيس تلك نحتت علامات غائرة من الحيرة والريبة على وجه أبي النواس ورمت به في آتون نقاش ذاتي مع صوت عقله فصله تدريجيا عن حديث الرئيس المرسل عن نفسه، فلم يعد أبو النواس يسمع صراخه ولا آرائه الغريبة، وعلا صوته الداخلي متعجبا:

— كيف لهذا الشاب المعتوه أن يتخيل أنه جاء بالانتخاب؟، هل حدثت له طفرة جينية تسببت في تعطل مخازن المعلومات في دماغه؟ ولكن كيف؟ لقد أشرفت بنفسي على مراحل تطوره منذ أن كان حيواناً منوياً! ماذا حدث لبرمجته العصبية؟، الفريق المشرف على ذلك أكد لي صلاحية قدراته العقلية للقيام بدوره كرئيس.

ثم هز أبو النواس رأسه وهو يتنهد في حق امعانا في الحيرة مصوباً بصره إلى نقطة ما في الحائط خلف رأس الرئيس إلى الأعلى، ثم فرك عيناه لطرد الوسواس عن رأسه فظن الرئيس أنه يسخر من حديثه، فالتقط هاتفه المحمول واتصل بوزير الداخلية ليحضر ومعه قوة لاقتياد أبي النواس للسجن، مما زاد من سخونة الجلسة المشحونة بالأساس.

ولكن على الجانب الآخر تستطيع تخيل وجه وزير الداخلية الذي تعلوه ابتسامة واسعة وهو يأتيه أمر مباشر من الرئيس بالقبض على غريمه، تراه يبدأ بالتفكير في مكانه الجديد من الرئيس وهو الرجل الأقوى في الحساوي، وما زاد في حماسه ما جاءه من خواطر أنه سيكون محل ثقة الرئيس وهنا صمتت كل الأفكار في رأسه إلا واحدة وهي الخاصة بالمصير الذي ينتظر الحساوي على يديه، هو يعلم أن أبي النواس منذ عقود عديدة يشرف على تحويل الشعب كما يضع خطة تربية الرؤساء والوزراء بنفسه ولكن دون أن يظهر لهم ذلك وها قد جاءت اللحظة ليحتل هو هذه المكانة، تنامي شعوره بالقوة والأهمية عندما شعر أنه بات أقرب ما يمكن من تعلم سر تحويل الشعب وفكر أيضاً في نقل المختبرات إلى مقر وزارته ليكون كل شيء تحت يديه.

صرخ الرئيس في وزير داخلته:

— هل تسمعي يا عشاوي أم أبحث عن وزير آخر يستطيع القيام بالمهمة؟

فأجابه الوزير بصوت حازم:

— اسمعك يا فخامة الرئيس. سوف أحضر حالاً ومعى القوة التي تريدها للقبض على رئيس العلماء.

ظل أبو النواس واجماً يتابع الموقف من بعيد ولا يتدخل، أيقن أن الرئيس نفسه يجب أن يتحول إلى دجاجة كي يمكنه رؤية وسماع من حوله بهدوء، ولكن كيف سيخضعه لهذا التحول برغبته؟! هذا ما ظل يفكر فيه بينما يصب الرئيس جام غضبه عليه وعلى باقي العلماء وجميع الوزراء وعلى الشعب والحصاوي من ورائهم جميعاً، مع أنه لم يمش على جلوسه على الكرسي سوى دقائق فقط؟!

دخل مدير مكتب الرئيس عليهما وهو ينادي بصوت خفيض على أبي النواس:

— يا رئيس العلماء هناك من يريد مقابلتك بالخارج.

انتبه الرئيس وكأنه يسمع مسمى رئيس العلماء لأول مرة، وزادت حدة غضبه وكرر الكلمة:

— رئيس العلماء؟! وهل هناك في هذه البلاد من يحمل لقب رئيس غيري.

ثم صرخ منادياً إلى أحد مساعديه الذي حضر بسرعة البرق للمثول بين يديه، فقال له بصوت عال:

— كيف يحمل رجل غيري في هذه البلاد لقب رئيس؟

أجابه المساعد المذعور:

— ولكنه يا فخامة الرئيس ليس رجلاً عادياً إنه رئيس العلماء

فأجابه الرئيس:

— أكتب مرسوم بقانون يحرم ويجرم اطلاق لقب الرئيس على اي شخص كائنا من كان في الحساوي غير الرئيس. على أن يتم تبديل كل المسميات الوظيفية في البلاد إلى ما يناسب عمل كل منهم. أريد هذا المرسوم الآن كي أوقعه ويذاع في محطات الاذاعة والتلفاز وينشر في الصحف وفي الجريدة الرسمية. ومن الآن هذا الرجل يلقب بكبير العلماء هذا ان بقي في منصبه.

وضع أبو النواس رأسه بين يديه وأطرق يفكر في المصير الأغبر الذي ينتظر الحساوي، فما يحدث أمام عينيه لم يحسب له أي حساب، هو متمكن من عمله لم تحدث طفرة واحدة منذ أن تبوأ منصبه قبل أربعين عاماً، والآن هو نفسه يواجه أسوأ طفرة شهدها تاريخ الحساوي القديم والمعاصر على حد سواء.

وما يجعله في حيرة حقاً أن الرئيس مازال في دقائقه الأولى من الحكم لم ينجز أي شيء وها هو يصدر أول قرار بتحريم مسمى "رئيس" على الجميع، قال لنفسه:

_____ مظلومة هذه البلاد، أخضعناها لكل التجارب التي عرفتھا البشرية والتي لم تعرفھا ولم تقل يوماً لا، ولم ترفع صوتھا بالرفض ولو لمرة واحدة، حولنا أبنائھا إلى أبقار وخراف ثم إلى حمير وهي صابرة راضية واليوم يريد مني تحويلهم إلى دجاج دون وعي لخطورة ذلك ويريد مني أن أقتل حتى المعارضة السورية في البلد وهي التي يستمد منها بقاءه.

استوقفته كلمة بقاءه وكأنها ولدت للتو في قاموسه اللفظي ذكره معناها أن ما يريده الرئيس فيه نهايته، فقال في نفسه:

_____ له ما طلب.

ثم نظر إلى الرئيس وهو يبتسم في دهاء قائلاً:

_____ الآن وجدتها يا فخامة الرئيس

نظر إليه الرئيس كأنه ينظر إلى رجل مجنون، مع أنه يعلم في أعماقه أن هذا الرجل هو الوحيد القادر على إبقائه على الكرسي الفخم الجالس عليه خلف هذا المكتب المصنوع من خشب الورد الهندي لأطول مدة ممكنة، ومع ذلك أجابه باستعلاء وكبرياء شديدين:

_____ وما هي التي وجدتها يا أبي النواس؟

فأجابه أبو النواس في تواضع:

— الطريقة التي تمكنا من تحويل الشعب إلى دجاج وقتل أي معارضة في نفوسهم.

تهلل وجه الرئيس وعلته ابتسامة عريضة وأخذ نفساً عميقاً وأخرجه من أنفه الدقيق وهو يقول:

— الآن فقط دخلت عالمي يا رئيس العلماء، أنت بحق تستحق كل الاطراء الذي سمعته عنك.

علق أبو النواس في هدوء:

— بل كبير العلماء يا فخامة الرئيس، هذا نص المرسوم الذي أصدرته للتو!

رد الرئيس وهو يحاول أن يبدي انشغاله بتوقيع بعض الاوراق أمامه:

— لا تعباً كثيراً بالقانون.

فأجابه أبو النواس في دهشة واضحة:

— كيف؟!، وقد صدر ويجب علينا أن نلتزم به.

رد الرئيس بنفس اللامبالاة:

— القانون مادام في أيدينا نصدره ثم نلغيه هذا أمر روتيني، لا تشغل بالك به ودعه لنا.

بدأ الحزم يعرف طريقه إلى صوت أبي النواس منذ دخوله،
وقال معلقاً:

— لا بل يجب أن نلتزم به ما دام قد صدر.

أخذ الرئيس نفساً عميقاً وأخرجه زفيراً بهدوء وهو يقول:

— أنا الذي أصدرته وها أن ألغيه، ومن يكثرث للقانون يا رجل في
هذه البلاد؟!

فأجابه أبو النواس:

— الشعب

علق الرئيس المندم من حزم أبي النواس وقد ملأت وجهه ابتسامة
عريضة:

— قلت لك أنت دخلت عالمي يا رجل، لهذا السبب بالضبط
اخترت أن يكون شعبي من الدجاج حيث لن يعبأ عندما أصدر القانون
لسبب ما مادامت الحبوب تملأ الأرض أمامه عينيه حتى وإن لم تصل
إلى معدته، ولن يكثرث أيضاً عندما نلغيه لنفس السبب الذي أصدرناه
من أجله فلم يبق من ينظر إلى الأسباب هنا، ولكني أحذرك من وجود
الديوك في شعبي أنا أريدهم جميعاً دجاجات.

فقال أبو النواس:

— ولكن الدجاجة أشرس بكثير عندما يمس أحد البيض أو الأفراخ

ضحك الرئيس بصوت عال من جديد وهو يعلق على ما سمعه:

— وفي هذه الحالة نلجأ إلى القانون الذي هو بأيدينا، نصدر قانونا بأن تؤول ملكية كل البيض في الحساوي للدولة، وهكذا تصمت الدجاجات وتستعد لوضع بيض جديد.

فأجابه أبو النواس وهو يهم بمغادرة المكتب الرئاسي:

— إذا اتفقنا، أستاذن فخامتك بالانصراف كي أبدأ حالاً في وضع خطة بيولوجية لتحويل هؤلاء الحمير إلى دجاجات.

وقبل أن ينصرف استدار إلى الرئيس الذي كان قد جلس على الكرسي الفخم من جديد، وسأله باستغراب شديد:

— فخامة الرئيس. لي سؤال أخير.

فأجابه بحركة من يده تشير إلى موافقته على طرح السؤال.

فأكمل أبو النواس:

— أنت قطعت وعداً للشعب بأنك ستقضي على البطالة خلال أول اسبوع من حكمك، أي أمامك سبعة أيام للوفاء بهذا المستحيل.

فضحك الرئيس من جديد وهو يشير إلى أبي النواس بالانصراف قائلاً:

— أنت اذا لم تسمع باقي الخطاب فقد وعدت بالقضاء على الأمية والمرض أيضاً، ولكن دع أمور الحكم لي، وسوف تعجب عندما أحقق ما قطعته على نفسي وفي الموعد المحدد.

خرج أبو النواس من المكتب الرئاسي وهو في غاية الدهشة من الثقة التي ملأت كلمات ووجه الرئيس، لكنه في الوقت ذاته يعلم جيداً قدراته مقارنةً بما وعد به، في طريقه إلى خارج قصر الرئيس كان يتحدث إلى نفسه بصوت ربما يكون مسموعاً لمن حوله لكنه كعادته لا يأبه لهم جميعاً ولا لما يظنونونه.

[٣]

كان اليوم الجمعة عندما استيقظ أبو النواس على صوت النشيد الوطني للحصاوي الذي جعل منه نغمة لرنين هاتفه المحمول، وكان يغط في نوم عميق وكان يود أن يستمر لمدة أطول، فلم تذق عيناه للنوم طعماً طيلة يومين متواصلين قضاهاما بين بشر التجارب في المعمل يشرف على إيجاد صيغة بيولوجية مقبولة تمكنه من تحويل الحمير إلى دجاج، تأفف بصوت لا يسمعه إلا هو مع علوه، فغرفته كالحصن المنيع لا يخرج منها حتى ذبذبات الصوت التي تستطيع اختراق الموانع إلا جُدر أبو النواس المصمتة التي بناها حوله في كل مكان عاش فيه ولا أحد يعرف هل تسلل ذلك من صدره الذي لا تستطيع الأسرار اختراق جدره المنيع أم جُدر الأسمت والطوب هي التي تسللت إلى صدره؟!، مع استمرار الهاتف في الرنين لم يجد بُداً من التقاطه وهو في ضيق بالغ من سماجة من يصصر على إيقاظه رغماً عن أنفه وبدأ في تأنيب نفسه بصوت غير مسموع في هذه المرة لسماحه لهذا الهاتف الملعون الذي لا يكف عن الرنين بدخول غرفته، وهو الذي حرم عليه منذ زمن بعيد اقتحام غرفته، ولكنه من شدة انشغاله بالحديث لأحد مساعديه في المختبر أدخله وعندما اكتشف وجود هذا الضيف الثقيل كان الوقت قد فات على إخراجه من الغرفة.

وقال وهو يصرخ:

— من أنت وماذا تريد في هذا الوقت؟

فجاءه صوت نائبه الدكتور إبراهيم أبو النصر كأنه يصارع الغرق:

— هناك مصيبة يا دكتور.

فأجابه أبو النواس وهو يضع يده فوق عيناه محاولاً منع تسلل الضوء القادم عبر نوافذ غرفته إلى حدقة عينيه المتعبة ليتمكن من رؤية عقارب الساعة التي تشير إلى الثامنة والنصف صباحاً:

— لم أغادر المختبر الا من ساعات قليلة فقط. ماذا حدث؟

فقال أبو النصر:

— المصيبة ليست في المختبر بل في الرئيس.

فقال أبو النواس في غيظ:

— قل ما عندك بسرعة لا حاجة للمقدمات.

فأجابه:

— الرئيس اتخذ قراراً بسجن جميع العاطلين في الحساوي في سجون سرية وإلى الأبد، أو قال بالأحرى حتى نجد لهم عملاً.

فصرخ أبو النواس كأن ثعباناً قد لدغه:

— ماذا؟!!

فأجابه أبو النصر:

— هذا ما حدث، ووزارة "كل شيء فداء الرئيس" لديها قوائم بأسماء جميع العاطلين عن العمل وتقوم الآن بإلقاء القبض عليهم وترحيلهم إلى السجون.

المفاجأة ألجمت لسان أبي النواس فأنهى المكالمة، وهو لا يعلم ماذا يفعل، بعد لحظات من الصمت بدأ يصرخ قائلاً لنفسه:

— لقد علمت منذ اللحظة الأولى أننا وقعنا في خزان مرحاض، ولا أعلم كيف سنخرج منه ومتى!!

لكنه سرعان ما تذكر كلمة قالها نائبه لم تستوقفه في حينها لأن وقع الخبر المفزع شتت انتباهه لثوان معدودة ولكنه الآن انتبه لاسم الوزارة " كل شيء فداء الرئيس" ورددها في تعجب بالغ، وهو يقنع نفسه " لعل أبو النصر قالها بالخطأ لفرط تأثره بقرار الرئيس!"، ولكنه عاد للتفكير من جديد في القرار ذاته متناسياً ولو لبعض الوقت هذا المسمى الغريب، أمسك مسرعاً بهاتفه مجدداً وعبث بأزراره وهو يحاول الاتصال بكبير الوزراء، لعله يجد عنده تفسيراً منطقياً لهذا القرار المخبول.

وبعد رنات متواصلة جاءه صوت كبير الوزراء الدكتور بهاء بكير، منهكاً حتى أنه تصور للحظات أنه أخطأ في الاتصال ولكن كبير الوزراء أجابه:

— أنا بهاء يا أبو النواس، ماذا تريد في هذا الوقت الكالـح.

فقال أبو النواس:

— أريد أن افهم ماذا ستفعلون بنا وبالحصاوي يا بكير؟

فأجابه قائلاً:

— الله وحده يعلم ماذا تخبأ لنا الأيام يا أبو النواس، القرار صحيح والعمل جاري على ضبط جميع العاطلين وإلقاء القبض عليهم وترحيلهم إلى مكان مجهول.

فتسائل أبو النواس:

— وما ضرورة هذا القرار المجنون؟

فأجابه بكير:

— الرئيس قال إنها الطريقة الوحيدة للقضاء على البطالة بسهولة ويسر، وقال أيضاً أن لديه خطة لإيجاد عمل لكل واحد من هؤلاء العاطلين.

فصرخ أبو النواس:

— ولكن هل سجن العاطلين هو الحل للمشكلة؟!

فأجابه بكير:

— فخامته أصر على أنه الحل المثالي للمشكلة.

فسأله أبو النواس:

— وكيف استقبل الناس هذا القرار؟

فأجابه:

— لم يكن هناك أي رد فعل، كلما دخلت قوات "كل شيء فداء للرئيس" إلى منزل لاقتياد العاطلين، خرجوا معهم في هدوء دون أن يقولوا أي شيء يبين ما الذي يشعرون به.

فعلق أبو النواس قائلاً:

— ماذا سيفعل إذاً مع الأمية والمرضى، هل سيقتل الشعب؟!!

لم يتلق لها جواباً، فتذكر اسم الوزارة الغريب الذي يسمعه لأول مرة في حياته، فقال في تهكم غير معهود:

— بكير، هل لديك وزارة بإسم " كل شيء فداء للرئيس"؟!!

فأجابه كبير الوزراء بصوت تعلوه نبرة انكسار لا تخطئها الأذن:

— نعم هي وزارة ولكنها لا تتبع مجلس الوزراء بل تتبع فخامته مباشرة، وهي جهة فوق سيادية.

تعجب أبو النواس مما سمع، ظهر ذلك في نبرة صوته وهو يقول:

— ومتى وأين أنشئت هذه الوزارة؟!!

فأجابه الدكتور بكير بصوت المنكسر:

— تم إنشائها من قبل فخامته قبل يومين.

أنهى أبو النواس الاتصال وظل يتلفت يمينا ويساراً لعله يفهم ما يدور من حوله، وظل يسأل نفسه بصوت مرتفع:

— كيف لي أن أكون بهذا الغباء وأن أسمح لمثل هذا المعتوه أن يتحكم في رقابنا جميعاً؟!

ثم عاود تذكر كلمة كبير الوزراء قوات " كل شيء فداء الرئيس"، ما هذا الهراء الذي قاله أبو النصر وبكير، وكرر الكلمة ببطء شديد وزارة " كل شيء فداء الرئيس"، ثم تساءل في نفسه إن كان ذلك كابوساً مزعجاً؟!

ارتدى ملابسه مسرعاً وخرج دون أن يتناول طعام الفطور الذي اعتاد تناوله برفقة أخته بهيرة تلك العجوز المتصابية التي كما تقول أنها تفرغت لرعاية أخيها الوحيد بعد أن توفت زوجته قبل عشرين عاماً، تعامله كطفلها الذي لم ترزق به لأنها عاقر طلقها زوجها بعد خمس عشرة عاماً فشلت خلالها أن تحقق حلمه في أن يكون أباً. سألته في حيرة:

— لن نتناول الفطور معي؟

فأجابها:

— لا

فقالت في دهشة:

— اليوم الجمعة، وهذا هو اليوم الوحيد الذي نتناول فيه الفطور سوياً، وهذه العادة لم تغيرها منذ سنوات طويلة؟

فأجابها بعد أن ركب السيارة وأغلق باباها وفتح زجاج النافذة:

— ما يحدث في البلد لم يحدث منذ عقود طويلة، علاوةً على كونه يسد النفس عن أي شيء، لا تنتظريني اليوم فعليّ ما يبدو ساكون مشغولاً وربما لعدة أيام مقبلة.

خرجت السيارة من باب القصر متجهة نحو المختبرات الوطنية الواقعة وسط الحساوي تلك المدينة التي لبست قشرة عصرية زينتها من الخارج أما جواهرها فقد بددتها أجيال متعاقبة، وظل حرصهم على صيانة هذه القشرة ليظل المشهد براقاً.

اتجه الدكتور أبو النواس مباشرة إلى مختبر الكيمياء الحيوية وكان خالياً إلا من بعض الفنيين الذين يحاولون إعداد عقار جديد يمكنهم من التحكم في انفعالات البشر وتغييره دون أن يشعر أحدهم بذلك، سأل الفنيين:

— إلى أين وصلتم؟

فأجابه أحدهم:

— العقار ممكن نظرياً فقد أثبتناه من خلال معادلات منطقية، لكن التنفيذ كما تعلم يحتاج لبعض الوقت وتغيير بعض المقادير وربما استخدام بدائل كيميائية مختلفة عما جاء في المعادلات، أنت أستاذنا في هذا المجال.

فسأل أبو النواس مجدداً:

— وهل راعيتم أن يكون جميع الشعب من الدجاجات.

فقال أحدهم وعلامات الحيرة تبدو على وجهه الضئيل وعينه الصغيرة الزائغة:

— بالطبع. وهل هذا شيء يفوتنا؟

فأمره أبو النواس بإخلاء المختبر تماماً من الفنيين، والذهاب إلى راحة وعدم العودة إلى هنا حتي يأمرهم هو شخصياً بذلك، فتم الأمر وخرج الجميع.

تناول أبو النواس البدلة الواقية التي تعزله تماماً عن جو المختبر بيده وهو يخرج ما في جيبه من متعلقات قد يحتاجها بالداخل ووضعها في جيب البدلة الواقية ودخل إلى غرفة التجارب بعد ارتدائها وإحكام غطاء الرأس، توجه تحديداً إلى منضدة صغيرة وضع عليها جهاز حاسوب شخصي أدار شاشته ناحيته وأدخل اسمه وكلمة المرور الخاصة به وفتح صفحته الشخصية على النظام الداخلي للمختبر فظهرت له بيانات كثيرة ركز بينها على معادلة التحول الكيميائي التي عكف على وضعها خلال الأيام الثلاثة الماضية لكن بعد تعديل طفيف أدخله عليها للتو، رأى أنه يمكنه من التحكم في نوع الدجاج عند الحاجة بحيث يستطيع إيجاد ديوك في الشعب عندما يحتاج، شرع مباشرة في إجراء التجربة التي دخل من أجلها إلى هنا وبدأ في تحضير مكونات العقار الجديد ولم يكن العمل سهلاً كما تخيل فقد ظهرت له بعد العقبات في إتقان التجربة على الرغم من أن المعادلة بدت للوهلة الأولى سليمة من الناحية النظرية، مرت ساعات وهو منهمك في عمل شاق تمخض في النهاية عن تركيبة أولية للعقار يجب أن يجري تجربتها معملياً في البداية على بشر التجارب للتأكد من فعاليتها.

مرت ساعات طويلة وهو يقف على قدميه لكنه لم يشعر بالتعب وهذه هي طبيعته عندما يكون لديه هدف يريد بلوغه، حيث اعتاد على تحقيق أهدافه مهما كلفه ذلك حتى وإن ألزم نفسه بالوقوف لساعات طويلة وعدم النوم لأيام، توجه على الفور بعد أن أخذ كمية من العقار إلى عنبر به عدد من بشر التجارب دائماً ما اختارهم ليكونوا محل اختبار أي شيء جديد يعده بنفسه، نمت بينه وبينهم علاقة ما لا يعرف مصدرها ولكنه حاول تجاهلها، بشر التجارب لم يكن لهم أسماء بل هم مجرد أرقام ينظر إليهم على أنهم ليسوا بشرا كاملين على الرغم من هيئتهم البشرية لكنهم كما يقال في المختبر أنهم جاؤوا إلى الدنيا عبر التقنية الحيوية عالمهم هو المختبر نهايتهم دائماً مأساوية وحكايتهم للأبد واحدة وكأن الزمن لا يجري عليهم!!، أشكالهم لا تتغير ربما لأنهم يموتون قبل أن يولدون كما أنهم يتحولوا إلى علف للمفترسات الوطنية سريعاً نتيجة ما يجرى عليهم من التجارب وسيان نجحت أو فشلت التجارب هم يموتون في كلتا الحالتين، أكثر ما يؤلم بشر التجارب هو تجاهل البشر ممن يحملون الأسماء والألقاب لهم وتنكرهم للنشأة الواحدة والمصير الواحد، ربما لأنهم لم يخالطوا ذوي الأسماء ولا أصحاب الألقاب منهم ليختبروا ضغائنهم وأحقادهم، وربما لأنهم لم يقرؤوا تاريخ البشرية المثير دائماً للاشمئزاز لغناه الفاحش بالمؤامرات والخianات والحروب التي تفوح منها روائح مقرزة أدناها رائحة الدم.

بشر التجارب لا يعلمون شيئاً عن طبائع البشر ولذا يجهلون أن استعلائهم ليس عليهم كبشر تجارب ولكنه جزء من تكوين البشر النفسي فهم يستعلون على أنفسهم أيضاً ما دفعهم إلى تصنيف أنفسهم إلى طبقات ورتب مع أنهم جميعاً يعلمون تماماً أنهم خلقوا جميعاً من طين عفن ويقتله وهما معاً يتحdan لسرقة الأسود وقتله، محصلة تاريخ البشرية كراهية تكسو كل شيء بلون الدم، كلهم يسرقون ويخونون ويكفرون كلهم، بشر التجارب لا يعلمون أن الإنسان العادي يحمل كل تلك الصفات مع أنهم يرون كل يوم ما يفعله العاملون في المختبر من كوارث في حق بعضهم ويسمعونهم دائماً وهم ينهشون عرض بعضهم، بشر التجارب ينظرون إلى المختبر على أنه العالم وهم بالطبع واهمون، فلو خرج أحدهم للعالم خارج المختبرات لندم بقية عمره على إقدامه على ذلك.

اقترب أبو النواس من القفص الحديدي المحتجز فيه العينة التي ستكون محل اختبار، حاول أن يختار أحد أفرادها فاقترب منه الرقم مائة وهو يشير إليه بأنه سيتطوع لهذا الاختبار إذا هو طلب منه ذلك. فأجابه أبو النواس:

— حسنا رقم مائة، تطوع لذلك من فضلك.

ذهب الرقم مائة إلى المكان المخصص للاختبار وتمدد على سرير وضع إلى جوار نافذة زجاجة صغيرة فتحها أبو النواس فأخرج رقم مائة ذراعه في هدوء، تحسسه أبو النواس بعناية فائقة وتخير الوريد

الذي سيكون موضع الابرّة بعدما ضبط جهاز الحقن على كمية معنية،
ثم حقن الوريد بالعقار وهو يقول:

— أريد منك ان تخبرني عما تشعر به بكل دقة.

فأجابه الرقم مائة وهو يعلق نظره إلى سقف القفص الحديدي:

— هذه وظيفتي التي من أجلها خلقت، أن أصف ما اشعر به فقط
دون أن يكون لهذا الشعور أي نتائج إنسانية محسوسة لي أو لباقي
مجموعتي.

تعجب أبو النواس مما سمعه فقال في دهشة:

— من أين جئت بهذه الكلمات وهذا المنطق يا رقم مائة.

فأجابه بسؤال:

— لماذا تفعلون بنا ذلك ألسنا بشر مثلكم؟

كان وقع السؤال على أبو النواس شديد فهو لم يتخيل أن يكون
لدى بشر التجارب أي إحساس أو فهم لطبيعة العالم الذي يعيشون فيه
أو حتى فهم للطبيعة البشرية التي ربما يملكون منها ولو جزء بسيطاً
جاءهم عبر الشفرة الوراثية التي كانت السبب في خروجهم في صورة
البشر، وها هو يسمع منطق يواجه منطق البشر.

كان العقار الجديد بدأ في التلاعب بشخصية الرقم مائة المجهولة على كل حال تتأوب وشعور بحكة في الوجه يجاريها بيده وتغير في الصوت لما يشبه صوت الدجاج وسرعان ما تزول الأعراض ويعود الرقم مائة لطبيعته، فيما يحاول أبو النواس التدرج بدقة في زيادة جرعة العقار التي تصبها الابرة في مجرى الدم المتدفق.

وفي لحظة بلوغ مؤشر آلة الحقن العلامة التي حددها أبو النواس للجرعة بدأ وعي الرقم مائة في الاختلال والجنوح نحو الفقدان فباغت أبي النواس قائلاً:

— منذ جئت إلى هنا وما أسمعته وأراه يؤكد لي أنكم في الاتجاه الخاطئ، وأنكم حتماً ستصبحون أرقاماً مثلنا في يومٍ ليس ببعيد.

صدمت تلك الكلمات أبي النواس وارتعشت من صداها يده الممسكة بجهاز الحقن ذي الابرة الطويلة التي غاص معظمها في وريد الرقم مائة فصرخ من شدة الألم، ونظر إلى وجه أبي النواس الجامد وإذا به يشي ببعض التعبيرات التي احتلت فجأة تلك القسمات العابثة فحملتها بالكثير من المعاني، فاستكمل الرقم مائة حديثه قائلاً:

— على ما يبدو أن أعظم رجال هذه البلاد لم يفكر أبداً في هذا الاحتمال، لم تسأل نفسك ولو لمرة واحدة ماذا سيحدث لكم إن تحولتم إلى أرقام لا تحمل أي دلالات؟.

زادت الكلمات من صدمة أبو النواس ولا إرادياً ضغط مكبس آلة الحقن إلى نهاية المؤشر ليصاب الرقم مائة على أثرها بتشنج شديد لثوان معدودة يفقد بعدها الوعي تماماً وتنتلق في الحال صافرات الانذار الموصولة بجهاز قياس العلامات الحيوية له ليهرع فريق

الطوارئ ويضج جو المكان بأصوات متداخلة بعضها يتسأل وبعضها يتلو الإجراءات المتبعة، لم يفلح الفريق في إنقاذ الرقم مائة الذي استسلم للموت جسده لتبدأ الروح تجربة جديدة نعلم بدايتها ولا نعلم متى تنتهي، أما الجسد المثخن بندبات الحياة فيبدأ رحلة عذاب أخرى حيث يحمل إلى مجازر بشر التجارب ليقطع ويعبأ كطعام للمفترسات الوطنية.

كان التغير الذي يريده الدكتور أبو النواس حاد وسريع بشكل لم يتحمله قلب الرقم مائة فيؤثر التوقف عن الخفقان في الصدر المثخن بالآلام وندبات مباضع الفريق الجراحي الوطني، هذه الندبات لا تقل عمقاً عن تلك التي تركها الزمن الذي لا يرحم في مكان ما لا يمكن رؤيته بداخل هذا الصدر الذي انقضت المفترسات البشرية على ما به من أحلام، تلك المفترسات التي تتغذى على أحلام الضعفاء الذين يضعهم القدر في درجة منخفضة في تصنيف سخي يسمونه السلم الاجتماعي، تكون صدورهم وما بها من أحلام فرائس سهلة لمن يسكن الدرجات العلا من هذا السلم الغذائي الاجتماعي المقيت.

كان الرقم مائة مجرد رقم بشري جديد ينتقل دون صخب من خانة الأحياء إلى خانة الأموات دون أن يكثر أحد أو حتى يكلف نفسه عناء الالتفات إلى تلك الأجساد المرقمة التي تقطع إلى أجزاء متناسقة غير متميزة لإطعام المفترسات التي تعيش في المنتزهات الوطنية، يومياً يموت المئات في المختبرات الوطنية في سبيل تحقيق ما يتمناه ساسة الحساوي، والسبب المكتوب أمام كل رقم انتقل من الخانة

الأولى إلى الثانية هو: "مات نتيجة خطأ مخبري غير مقصود ذو أهداف إنسانية نبيلة".

الرقم مائة وأمثاله تنهش أحلامهم ومقدراتهم المفترسات البشرية حتى يصبحوا مجرد هياكل بشرية مغطاة باللحم والجلد يتحركون ويأكلون ويشربون ليحافظوا على هذا الهيكل من أجل التجارب إلى أن يتحول الواحد منهم إلى وليمة للمفترسات الوطنية المتربصة في المبنى الفاره الذي يحتل مكاناً متميزاً من الحصاوي.

ما لم يلحظه أبو النواس أن بشر التجارب لم يعودوا كما كانوا في الماضي فقد طرأ تغييراً بسيطاً عليهم جعلهم يستخدمون جزء معقول من أدمغتهم لينبت فيهم العقل، فأصبحوا يفهمون التغيرات الاجتماعية والسياسية في الحصاوي من خلال ما يحدث لهم في المعمل، ما لا يمكن إنكاره أن ما يمرون به من طفرة ساهمت في تراكم الكثير من الخبرات والمعلومات لديهم وطورت نسق فكري ولغوي مختلف يمكنهم من عرض آرائهم كما فعل الرقم مائة الذي ظلت كلماته تتردد في أذني أبي النواس خصوصاً التحذير الأخير الذي أطلقه قبل أن يصيبه التشنج ويموت:

— رب هزيمة واحدة تلتهم ما حققته من مكاسب في انتصارات عديدة، وبعدها قد لا تملك من الوقت ما يكفي للدخول في معركة جديدة، فتتحول إلى رقم مثلي.

بقي أبو النواس في مكانه يفكر في الهزيمة التي ربما يسدل بعدها الستار وينطفئ قوس الأضواء المسلط عليه لينتقل إلى مشهد جديد لا يكون فيه هو ولا فريق علمائه، ولكنه قاطع نفسه متسائلاً في دهشة:

— كيف وصلت هذه الحكمة إلى لسان واحد من بشر التجارب؟!، على ما يبدو أنني على موعد مع الطفرات غير السارة.

كانت سيارته قد وصلت في الموعد المحدد لانصرافه وهو مازال يجلس في مكانه إلى جوار النافذة التي عبرتها كلمات الرقم مائة إليه، وعندما تأخر لم يجد السائق سوى الاتصال به ليستأذنه بالنزول لأن الوقت تأخر وعليه أن يقله إلى المنزل.

غادر أبو النواس المختبرات إلى قصره المنيف ولم يلحظ أن السيارة وصلت وأن السائق فتح له الباب وانتصب واقفاً في انتظار نزوله مع أنه ينظر إلى الباب المفتوح والسائق الذي يشير إليه بالنزول إلا أنه لم يدرك بعد أن عليه المغادرة ربما لأن عقله في مكان آخر أو لأنه يخاف أن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي ينزل فيها من ركابه، لكن كان عليه في النهاية أن يخطو الخطوة الأخيرة نحو بيته ويترك السيارة ويحرر السائق ليذهب هو الآخر إلى بيته، هبط من سيارته متثاقلاً ثم صعد درجات السلم المؤدي إلى باب القصر حيث تنتظره أخته بهيرة لم ينظر إلى وجهها كما يفعل، دخل الباب صامتاً يقلب وجهه في كل شيء من حوله بدهشة عجيبة، ظل على وجومه منذ أن

قتل الرقم مائة، في الحقيقة قلب هذا الرجل مات منذ زمان طويل ولم يعد يشعر بالحزن على فراق أحد أو موت أحد أو حتى قتله فذلك لم يكن مبعث وجومه في الواقع لكنه كان يفكر في الكلمات التي قالها الرقم مائة قبيل رحيله المتوقع غير الصادم لأحد، قال أبو النواس لنفسه:

— يا لها من مفارقةٍ عجيبة، طفرةٌ واحدة تحدث في مخازن المعلومات لأحد بشر التجارب تجعله فيلسوفاً وأخرى تحدث للرئيس تجعل منه أضحوكة؟!، الأول تأكله المفترسات الوطنية في وجبة الغذاء، والثاني يضع السياسات ويتحكم في رقابنا جميعاً، للأسف لم تنتج عمليات زرع المخ إلى اليوم وإلا كان لي موقف آخر من هذا الأبله الذي يظن نفسه رئيساً جاء بالانتخاب، نحن في الأساس لم نجري انتخابات قط، ما معنى هذه الكلمة ومن أين جاء بها؟!

الشعب مازال من الحمير وأي شيء يقال لهم يصدقوه هذا كل ما في الأمر، ربما قرأ المنشور الذي وزع على المنازل بأنه قد تم اختيار رئيس جديد للحصاوي على الناس أن تؤيده وتحضر حفل تنصيبه؟!

وأجاب نفسه بنفسه قائلاً:

— ربما يكون مصدر هذه الكلمة ترجمة غير دقيقة جرت في عقله لكلمة اختيار!، يا لهذا الغبي التعيس.

جاءه صوت عقله بهدوء يقول:

— اهدأ يا أبا النواس، كل مشكلة ولها عندك ألف حل، أنت تستطيع السيطرة على كل شيء من جديد لكن بحكمة، هو الرئيس الآن ويجب أن تتعامل مع هذا الأمر وإياك أن تبوح بسرك لمخلوق مهما كانت درجة ثقّتك به.

علق أبو النواس قائلاً:

— أنا في الأساس لا أثق في أحد على الإطلاق، من أين جئت بهذا الهراء، هذه طفرة تضرب كل شيء في الحاصلوي؟!.

تحسس جيب سترته ثم أخرج هاتفه الخليوي وعبث بأزراره ثم
أردف قائلاً:

— أهلا يا دكتور، أرسل تنبيه إلى جميع أعضاء الفريق بضرورة التواجد غداً في تمام الساعة الثامنة صباحاً، لمناقشة الخطة البيولوجية والكيميائية لتحويل هؤلاء الحمير إلى دجاج.

وأُنزل الهاتف دون أن ينتظر إجابة وسرعان ما أغلقه ووضعهُ على الطاولة القريبة من باب غرفته وبئر أسرارهِ الكبير، لم يدخلها سواه منذ سنوات طويلة بعد أن أعلن هو نبأ وفاة زوجته التي لا يعلم أحد أين جثمانها كما لم يحضر أحد قط مراسم تشييعها، أوكل عملية تنظيف الغرفة إلى إنسان آلي تم تصنيعه خصيصاً لهذا الغرض في أحد المصانع العالمية، لأن الحساوي لم تعد تصنع أي شيء، الغرفة تغلق ببصمة العين ولا سبيل لدخولها إلا من بابها الذي يشبه أبواب الحصون الحربية القديمة.

[٤]

بعيداً في قلب الصحراء حيث لا يرى إلا آثار الأحلام التي أنهكها الهرب خلف السراب حيث لا يسمع سوى صفير الرياح المتدفقة وهي ترتطم بالأذان كأنها تحاول قول شيء ما بلغة غير مفهومة، هناك حيث لا يصمد بناء أمام صبر الصحراء اختار شاب حالم يقال له الدكتور رشيد موقعاً أسفل تل نحيف أرهقه امتصاص الصحراء له كقطعة ثلج في محيط دافئ، يتوارى خلف هضبة عالية عندما تنتظر إليها من بعيد يخيل لك أنها راحة أمام هذا التل الهزيل القصير مشهد يضرب انتباهك بعنف وكأن فيل عظيم يركع لنملة، عبثاً تحاول استيعاب المشهد الذي نحتته الطبيعة بأناملها لكنك حتماً تفشل ولا تجد سوى قبول الأمر الواقع والمشهد كما هو: فيل يركع لنملة، حتى الرمال الصفراء التي تقف عليها هناك تشعر كأنها هادمة ربما لعذابها المستمر تحت لهيب شمس لا ترحم في بقعة قاحلة في عالم لا يأبه بجغرافيا غير مجدية إلا إذا احتاج لها كساحة حرب!..

لا أحد يعلم تحديداً لماذا اختار هذا الشاب المغمور هذا المكان المنسي لإنشاء مختبر لن يسمع عنه أحد بعيداً عن كل شيء؟!، والأعجب حقاً أنه خصص مركزه الوليد لأبحاث الزمان ذلك الشيء الذي لا يفكر فيه سوى حفنة من البشر المخبولين حول العالم، لكنه وعلى عكس كل التوقعات نجح رشيد في تشييد مركزه قبل عقود طويلة، آنذاك كان يتوهم هذا الشاب الذي حصل لتوه على درجة الدكتوراه في فيزياء الكم أنه يستطيع إيقاف حركة الزمن ليبطل أستار الزمان المحيطة بكل شيء، تلك الأستار التي تفصل الماضي عن الحاضر والمستقبل الذي رآه العجوز الأشعث أينشتين مجرد وهم.

اعتقد رشيد أن التجارب العلمية وحدها تكفي لمواجهة مخلوقات شرسة مثل الزمن والزمان والوقت، لكنه أصر على المواجهة وجعل من صحراء الصحاوي ساحة لها، صمم مختبره على هيئة دائرة الكترونية شديدة التعقيد يعمل كله كعقل الكتروني معتمداً على تكوينه الفريد فكل طوبة فيه تمثل حاسوباً فائقاً قائماً بذاته تعمل كخلية الكترونية تتكامل مع الآخرين ليصبح كل جدار من الأربعة جدران التي تشكل المختبر مكونة من عدد ضخم من الخلايا العصبية الالكترونية، والعجيب أن هذه الدائرة صممت بحيث لا يكمل ناقصها سوى دخول اثنان من بشر التجارب إليها، وهو ما دفع رشيد وفريقه البحثي إلى البحث في الحساوي عن مخلوقات بشرية ذات صفات خاصة. عمله في إنشاء المختبر توقف مرات كثيرة لعدم وصوله إلى بشر التجارب المناسبين وبعد بحث مضمّن دام لسنوات وجد طفلين ترعرعا لحسن حظه في مركز أبحاث آخر توقف عن العمل لأسباب تقنية، ولحسن حظه أيضاً أن الطفلان خاضا معاً تجارب قاسية وممريرة من التحول الجيني على الرغم من حداثة سنهما، ومن حسن طالع رشيد أيضاً أن الطفلان لم يقدر لهما القبول في المختبرات الوطنية التي كانت قد بدأت العمل فعليا على برامج بحثية مشبوهة كما كان يعتقد رشيد وأمثاله من الحالمين، كان السبب المعلن لرفض الطفلين أنهما يعانيان من إعاقات جسدية، كان ذلك كفيلاً بمنع وقوعهما في براثن أبو النواس وإلا ما كانت توجد قوة على الأرض تساعد رشيد في إخراجهما بعد أن يتحوّلا إلى مجرد أرقام في قواعد البيانات العامة للحساوي تنتظر دورها في سلسلة غذائية طويلة تخص المفترسات الوطنية، الطفل الأول أعمى ويسمى أيمن بصير والآخر أبكم أصم ويدعى شريف الراوي.

كانا طفلان داجنان وافق الدكتور رشيد على نقلهما إلى مختبره على الفور لما وجده فيهما من صفات انعزالية إعاقة ربما قللت من سيطرة الزمن عليهما، بمجرد دخولهما المختبر اكتملت دائرته الالكترونية وتحول إلى خلية واحدة متكاملة تسيطر عليها شبكة كهرومغناطيسية شديدة التعقيد والصلابة حيث لا يمكن اقتفاء أثرها بعد أن تغوص في باطن الأرض بعيداً عن الأنظار بين الهضبة الراكعة والتل النحيف المنتصب، المختبر اخفي كفقاعة صابون أنتجها طفل يلهو تلاشت كما بدأت لا يلاحظها حتى الطفل الذي أنتجها.

رشيد أبقى على خيط رفيع يصل المختبر بالعالم الخارجي هو جهاز بث لاسلكي ينقل البيانات إلى شاشة حاسوب واحدة فقط هي التي يملكها رشيد نفسه، كانت الخطة تقول أن هذه التجربة تستمر لعشر سنين قابلة للتجديد حسب ما يرى رشيد، وبعدها يتحول المختبر إلى متحف علمي وسط المدينة الكبيرة التي كان يحلم بتشبيدها حول المختبر ليعيش فيها كبار رجال الحساوي بعيداً عن الزمن وضغوطه. لكن لم ينتبه الشاب الصغير أن تجربته لم تنجح بعد وأنه مازال يعيش في عالم يقبض عليه الزمن بأنياه، ولكنه طموح الشباب!! ضرب الموت بجناحيه السوداء طائرة رشيد وفريقه عندما كانوا في طريق العودة إلى الحساوي بعد المشاركة في مؤتمر علمي في اللحظة التالية للحظة الرقم صفر من العد العكسي الذي يبدأ بلحظة الميلاد، فأصبحت الطائرة ومن فيها ورقة طويت ويتم البدء من أول سطر في التالية لها فمن يأبه لما طوي من صفحات؟! سقطت الطائرة وتحطمت وقضى

من على متنها جميعاً في اللحظة التالية لتوقف العد العكسي كل ذلك حدث ويحدث من حولنا في كل لحظة ولكن لا ننتبه الا عندما نمر باللحظة صفر ثم يتوقف كل شيء بالنسبة لنا هنا. لم يدرس رشيد هذا العد العكسي يوماً ولم يفكر في اللحظة التالية للحظة صفر ربما الأمر بالنسبة له كان بديهياً لدرجة جعلته لا يلفت إليه نظر عالم شاب مثل رشيد، ولكن الأمر على بديهيته يظل لغزا محيراً للبشرية، أن تكون ثم لا تكون، أن تحلم وتتخيل وتبسط وتفهم وتخل وتضحك وتبكي وتمشي وتفكر وتقرر ثم فجأة لا شيء إطلاقاً من هذا، تتحول من محل الفاعل إلى المفعول به من المتحرك دائماً إلى الساكن باستمرار، إنه لأمر يجب التوقف عنده طويلاً وربما ان كان رشيد توقف عنده لما فكر في بناء مختبر لأبحاث الزمان لأن الخروج من الزمن والمكان حتمي، في حين الدخول إليه مبني على نظرية الاحتمال.

كتب رشيد ذات يوم في مذكراته الشخصية فقرات قليلة من يقرأها يملأه العجب كيف لهذا الباحث الفذ ألا يلحظ خطورة العد العكسي وهو أول من أشار إلى الكلمة وتفسيرها، ولكنه لم يفعل حتى مر بالتجربة كمن سبقه ومن لحق به حيث قال فيها:

الزمان لا يرحم فسيفه المسلط على الرقاب والذي نسميه الزمن في عده العكسي سريع الوتيرة، ربما نحن كبشر ابتكرنا قياسا للزمن تصاعدي يسمى الوقت، ربما لكي نكسر حدة الخوف من العد العكسي الذي نشعرنا بالتوتر والقلق، فالعد العكسي مهما كان طول أمده الا أنه في الوقت ذاته يشعرك بأن النهاية حتمية وقريبة في الآن ذاته فتتوقف عن فعل كل شيء الا التفكير في لحظة النهاية. أما العد التصاعدي

يجعلك لا تفكر في الأمر إطلاقاً حتى وان كانت النهاية على بعد لحظات منك، يجعل أفق البقاء متسعاً والحبل المحكم حول عنقك طويل جداً بحيث تظن أنه لا نهاية لطوله، والأمل في الحياة يغمض عينك عن الحقيقة الواقعة أن بئر المشنقة قد فتح تحت قدميك منذ لحظة الميلاد وأنت تهوي والحبل المعلق في رقبتك مثبت بإحكام في ذراع المشنقة المثبت بدوره في قمة جبل شاهق ارتفاعه أبدي لا ينتهي ومهما كان طول الحبل ستصل إلى نهايته وستدق عنقك في لحظة ما على مسافة ما من قمة هذا الجبل التي انطلقت منها نزولاً إلى الأسفل، كلنا لف حول عنقه الحبل ربما قبل أن نأتي إلى هذه الدنيا، فالحكم بالموت يأخذ وقتاً طويلاً للصدور ثم وقتاً أطول للتنفيذ وهو ما يجعل الأمر أكثر إيلافاً فمنتظر الموت يموت كل يوم، ربما لذلك ابتكرنا نحن البشر قياس الوقت بشكل تصاعدي ينتهي كل يوم عند منتصف الليل، انه لأمر مريح يجعل من الموت صديق خفيف يأتي مرة واحدة بشكل خاطف لينتهي كل شيء هنا على الأقل".

رشيد ربما لم ينتبه لأمر العد العكسي لأنه ربما شعر أنه لا يمثل شيئاً بالنسبة له فالوقت مازال مبكراً على الوصول إلى نهاية حبله التي كانت وشيكة دون أن يدري!!.

وإمعاناً في الطموح وربما الغرور صمم رشيد تجربته ولم يضع لها خطة بديلة، بمجرد توقف العد العكسي لرشيد وطاقمه والطائرة وطاقمها خرج الجميع من الغشاء الكوني الذي نعيش فيه ويسيطر عليه الزمان، وهو ما حدث للمختبر الذي أصبح كأنه لم يكن، والغريب أن المختبر طور نفسه حتى صار سجناً لا فكاك منه بعدما طويت صفحة

رشيد وتجربته السرية إلى الأبد، رشيد صمم المختبر كعقل يتطور باستمرار يمكنه استخدام امكاناته ليحاكي قدرة الإنسان على التطور والتفكير وهذا له ميزاته وعيوبه، لكن المختبر ليس كالإنسان فهو يعمل دون كلل ولا يطوق عنقه حبل مشنقة الزمن، فتحلله من ضغط الزمن وسيفه جعله أكثر حرية في التفكير والعمل والابداع ما جعل المختبر وحدة عضوية واحدة تعيش دون أن يشعر بها أحد في هذا العالم.

في البداية كان أيمن يظن أن المختبر هو أمه وتماهی مع هذا الظن حتى كبر وعندها صدمه ذكي -وهو اسم العقل الالكتروني الخاص بمختبر الزمان- بأن أمه قد ماتت ليتحول المختبر في مخيلة أيمن إلى صديقه الوفي ثم إلى سجانه بعد أن أوهمه ذكي أنه قد ألقى القبض عليه في قضية محاولة قلب نظام الحكم في الحساوي وعلى الرغم من أنه لا يعرف أي شيء عن هذا الموضوع إطلاقاً إلا أنه تماهی أيضاً مع الأمر ورضخ لسجانه وعاش في زنزانته الافتراضية مع الصول عبد العال وزميله في الزنزانة شريف حيث أوهمه الصول عبد العال أن شريف هو زميله منذ أن جاء إلى هنا، لكنه لم يسمع صوت هذا الزميل ولا حتى وقع قدميه على الأرض. ذكي أفهم أيمن أن سجنه أبدي، لم يعر أيمن الأمر أي اهتمام فهو مسجون خلف عينيه منذ ولد فالظلمة الحالكة التي تحيط به جعلته يعتمد على شعاع النور المنبعث من أعماق روحه وجعله ذلك يشعر بأنه في أمان مما يخيف المبصرين طالما بقي هذا الشعاع موصول.

كان الأمر مختلف تماماً بالنسبة لشريف فقد كان سجنه خلف لسانه وأذنيه أشد وطأة كأنه وضع في غرفة من الزجاج الشفاف يرى ما حوله فقط ولكن الصوت لا يستطيع اختراق محبسه ليصل إلى أعماق نفسه لينبه حواسه الكامنة خلف هذه الصور المتحركة الصماء المبهمة التي تمر في صمت مطبق أمام عينيه، وكانت طبقة الزجاج أشد احكاما وايلاما في الوقت ذاته فهو فاقد لوظيفة لسانه تلك الخاصة الفريدة التي تميز الإنسان وهي الكلام. كان يرى ويفهم أنه في مختبر وأن هناك إنسان آلي يتحكم في كل شيء كان قد رأى الدكتور رشيد وفريقه مرة واحدة عندما انتقل برفقة أيمن إلى هنا للمرة الأولى لكن فهمه عاجز، مبتور عن الواقع فاقد لمعنى هام في التكوين البشري ربما كان يستطيع هو استخدامه بشكل صحيح على عكس غيره ولكن هذه الأمنية لا يمكنه نقلها خارج أسوار الجسد العالية التي ضربت من حول روحه منذ ميلاده ولا يعلم متى يمكن نقب أحدها فهو لا يملك سوى بصره الذي لا يمكنه اختراق تلك الحواجز إلى من حوله.

كان ذكي العقل الإلكتروني للمختبر قد دأب على معاملة شريف بشكل مختلف لأنه يعلم أنه يرى كل شيء من حوله ولكنه معزول في جزيرته الخاصة التي بناها له ذكي أيضاً منذ لحظة وصوله الأولى إلى المختبر أي إلى قلب العقل الإلكتروني، هو يشعر بذكي من حوله دائماً في كل لحظة، تعلم منه لغة يمكنه التواصل من خلالها، وعلى خلاف أيمن المحبوس خلف أسوار من نوع آخر تمنع فتونات الضوء من الوصول إلى أعماقه هو الآخر، كل منهم في سجنه الخاص يبحث

عن الخلاص بطريقته، ذكي أقنع شريف منذ البداية أنه هنا في مستشفى لمرض أصابه في صغره أفقده السمع والكلام والقدرة على الحركة، وأنه هو طبيبه وسوف يظل هنا لأن هذا المكان هو الأكثر أماناً في العالم. على الرغم من عدم إيمان شريف بما يشعر به ويراه من معلومات عن ذكي لكنه كان في حقيقة الأمر يعلم ما لا يعلمه أيمن، يعلم أنه طفل لا أب له ولا أم وهذه الحقيقة آلمته طويلاً ولكنها ككل الحقائق تبدأ ضخمة كالجبل ثم تتحرك نحو الأفق مبتعدة حتى تتلاشى لا يبقى منها سوى أثر يزول مع الزمن وتظل لها علامة في النفس فقط كدليل على مرورها كندبة تركها جرح عندما نراها نتذكر الجرح ولكن الألم تلاشى. انتهى كل شيء بقبول ذكي صديقاً له.

كان ذكي دائم التذمر من كلام أيمن المستمر فهو لا ينام أبداً ولا يتوقف عن الكلام أبداً ولا يتوقف عن الحركة إطلاقاً، كأنه نجم في مداره. وكان ذكي يعبر عن غضبه من ذلك لشريف بين الفينة والأخرى فكان التعبير بمثابة الفكاهة الوحيدة في ذلك العالم الصامت الذي يعيش فيه شريف على الرغم من أنه لا يدعو عن كونه إحياء صامت وسط الصمت، ذلك الهدوء السرمدى اللانهائي كشريط مستمر من الصمت يمر أمام عينيه، هو يلاحظ الحركة بعينيه ويرى شفتي أيمن اللتين لا تتوقفان عن الحركة أبداً وحركته الدائبة في الغرفة الواسعة التي يقيمان فيها منذ أن جاءا إلى هنا، لكنه يعجز عن الوصول إليه أو التحدث معه.

كتب ذكي خلاصة لذلك في مذكراته الخاصة جاء فيها:

"سجن الإنسان وسط منظومة من الأوهام يعزله عن كل شيء حتى نفسه، يمكن هندسة واقعه الداخلي، عبر الأوهام يمكن التحكم في ضوئه الداخلي وصوته الداخلي وعمقه الداخلي".

عندما أحضرا أيمن وشريف إلى المختبر لم يكن يعلم أي منهما شيئاً عن الزمان أو الزمن أو الوقت أو الموت أو الحياة ولا حتى عن الله. لكنهما كانا يحقنان كل ليلة بالعلم والمعرفة ضمن التجربة التي يجريها ذكي على المخ البشري عبر ما يعرف بالتخاطر الكهربائي، بدأ ذكي اختبار طريقة مبتكرة لنقل المعلومات من عقله الإلكتروني الضخم إلى مخ أيمن وشريف باستخدام حقل كهرومغناطيسي يربط الأدمغة الثلاثة ببعضها يقوم بعدها برنامج حاسوبي سحابي معقد في بث المعلومات الجديدة في سيل متصل ومستمر عبر الحقل ثم يبدأ في قياس مدى نجاح العملية بأن يهمس في أذن أيمن بصوت يحبه وهو صوت معلمه القديم رافت الذي تعلق به كثيراً وتعلم منه الكثير وهو لا يعدو عن كونه أحد الشخصيات الصوتية الالكترونية التي ابتدعها ذكي ووضعها في عقل أيمن منذ أن كان صغيراً، فكل ما مر به هذا المسكين لا يزيد عن كونه تجربة مخبرية ساحتها دماغه الصغير الذي أصبح يحمل مئات الآلاف من الموسوعات وملايين الكتب وجميع الأديان واللغات وكل الأصوات التي يمكن أن تؤثر فيه أو تتأثر به، حتى أمه التي يحلم بها لا تخرج عن ذلك فهي إحدى النساء اللاتي خلدهن ليونارد دافنشي في لوحاته خلق لها صوتاً جميلاً تسالت من خلاله إلى أعماق أيمن الذي مازال يمكنه إخراج ما يفيض عن حاجته

من المعلومات عندما يضيق صدره أو دماغه بما ألزم بتناوله دون علمه أو رغبته!! ما جعله دائم الراحة، فعندما تلقي ما يفيض عن حاجتك من أفكار خارج رأسك تجد دائماً مساحة لاستيعاب المزيد، ولكن هذا الأمر مازال مختلف بالنسبة لشريف الذي يتم التأثير عليه بصريا عبر الصور التي يراها ويتفاعل معها دماغه، هذا التفاعل تحت مراقبة دائمة من برنامج حاسوبي صممه ذكي لهذا الغرض، لكنه لا يملك فرصة مماثلة لما يملكه أيمن تمكنه من إخراج ما زاد عن طاقة دماغه على الاستيعاب فهو قعيد تماماً وأصم وأبكم، لم يستطع جسده الهزيل الا تطوير آلية عنيفة للتخلص مما زاد عن طاقته في الاستيعاب عن طريق انفجار الدم من أذنيه وفمه نتيجة للضغط الهائل التي تسببه المعلومات بداخله والتي تمزق أنسجة الفم والأذن في طريقها للخروج شيء أشبه بالثورة!! في كل مرة ينزف يحاول أن يصرخ من شدة الألم فلا تجد صرخته مخرجا فتغوص في نفسه وتمزق في طريقها أحشائه ولا يطفو الا الصمت!!

كان ذكي يراقب كل ذلك بدقة يسجل ملاحظاته حولها كتابة وصوتا، ومع الوقت بدأ يخرج بخلاصات هامة جاء فيها:

"اللغة هي أصل الخلق ومفتاح فهم الكون، والصمت هو انعكاس لصورة اللغة على النفس".

ثم علق على تلك الخلاصة بعبارة وجدها مدونة في مخطوطة عتيقة جاء فيها:

" كل شيء يحدث في عقل الإله "

ثم أتبع ذلك بعبارة أشد غرابة من سابقتها "معنى ذلك أن ما كان وما سيكون وما هو كائن يحدث على مستوى اللغة".

كعادته عندما يصل ذكي إلى نتيجة ما في البحث يبدأ على الفور في اختبار ثباتها عن طريق اختبارها على أيمن فقط يقول سؤال بيثه عبر رسالة صوتية من خلال الحقل الكهرومغناطيسي ليلتقطها دماغ أيمن الذي يحول حديثه على الفور من الموضوع الذي يتحدث فيه إلى الإجابة عن السؤال قائلاً:

— يا صول عبد العال تعال هنا لأقول لك شيئاً مريعاً ستنتفض منه رعباً

فجاءه الرد سريعاً بنبرة خشنة:

— يا مسجون اصمت قليلاً لقد تعبت من حديثك المستمر

فقاطعه أيمن بحماسة:

— أرجوك اسمعني ولا تقاطعني

فأجابه الصول عبد العال:

— قل وأجز فلدي عمل طويل

فقال أيمن:

— هل تعلم ما هو أول ما خلق الله

فقال عبد العال على فوره:

— أستغفر الله العظيم، هل ستبدأ في الخوض في أمور أكبر منك يا مسجون

فضحك أيمن بشدة وهو يقول:

— لا تغضب، فأنا أعمى، وليس على الأعمى حرج، فقط اسمع ولا ترد

ثم أردف:

— اللغة هي أول ما خلقه الله بيده، وهي أصل الخلق جميعاً، يقولون أن القلم هو أول مخلوقات الله، ولكن ذلك خطأ والدليل أن الله تعالى قال للقلم أكتب، وهذا الحوار دليل على وجود اللغة قبل القلم، ومعنى الأمر اكتب أن هناك لغة يمكن أن يستخدمها القلم في كتابة ما يريده الله، الله أعظم من أن يخلق شيئاً ثم يبحث عن طريقة للتواصل بها معه، علمه المحيط يجعله يدبر الأمر بحكمته، أما الدليل الثاني يقبع في وسط حكاية خلق آدم فيحكى لنا الله في كتبه عن قصة الخلق عندما صنع آدم بيده وقال للملائكة ومن بينهم إبليس اسجدوا، فسجدوا إلا إبليس له حكاية أخرى، هل تتذكر ما حدث مع آدم بعد ذلك عندما علمه الله الأسماء وقال للملائكة "أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين" فكان جوابهم "لا علم لنا الا ما علمتنا" معنى ذلك أنهم تحدثوا لغة وقد تحدث آدم لغة أوسع منها.

لذلك اللغة هي أول ما خلق الله والدليل أن كل شيء خلقه الله يتحدث لغة معينة، وإلا لما قال الله "كل قد علم صلاته وتسبيحه" وهل تكون صلاة وتسبيح دون لغة، إلى كل من ينكرون ذلك أخبروني كيف تحدث الله إلى القلم وإلى الملائكة وماذا علم آدم؟!

ثم صرخ أيمن بصوت عال وفي توتر شديد كمريض جاءته نوبة هستيريا:

— قدسوا اللغة فهي مفتاح الاتصال بالسماء، فإذا ما بدلت الألفاظ المقدسة بأخرى منحطة فكيف سننظر إلى السماء وبأي كلمات نتحدث مع ساكنيها؟!

ثم بدأ في رقصته الصوفية التي يدور فيها حول محوره في حركة دائرية متصلة وهو ينظر إلى السماء بعيون لا ضوء فيها مغمماً بكلمات كأنها طلاس غير مفهومة، هذه حالته عندما يشعر بالصفاء الداخلي ولا يتوقف إلا عندما يأتيه بث آخر يستدعي التفكير والتأمل في معان أخرى.

[٥]

"كل شيء في تغير دائم ولا أحد يمكن إيقاف هذا التغيير قبل أن يخرج من نطاق الزمان ولن يفلح في ذلك الا عندما يخترع أحدهم طريقة للخروج من المكان برمته والزمن بجاذبيته ونتيجة لأن ذلك ليس ممكنا إلى الآن فيجب أن تظل التجربة قائمة ومستمرة".

تلك كانت فقرة مقتطعة من رأي كتبه رشيد في مذكراته "الضائعة" ذات يوم عندما كان يحاول التفكير باستخدام الورقة والقلم كي لا يحجب صوت عقله، لكنه لم يتخيل أنه ذات يوم سيكون هذا الشخص الذي أشار إليه في فقرته بكلمة "أحدهم" وأنه سيكون أول من يتمكن من اختراع شيء يمكنه الخروج من المكان والزمن معا، لكنه مع ذلك كان لديه خطأ بسيط يضاهي خطؤه في عدم ملاحظة العد العكسي للزمن، وفي الحاليين هو أول من يضع قواعد اللعبة دون أن يدري ذلك!! كان يظن ربما لحدث سنه أن تقليل فعل الجاذبية على الأشياء هو الحل الوحيد للخروج من الزمكان وبخروجه هذا يحطم غشاء الزمان المحيط بكل شيء، هذه الفكرة جاءت ذات يوم وهو جالس فوق كومة مرتفعة من قش الأرز في حقل جده منهمكاً في التفكير كعادته بينما يرمي بكرة ببسبول إلى الفضاء ويلتقطها في حركة آلية مستمرة دون أن ينظر إليها أو حتى يفكر في التقاطها، توقف للحظات عما كان يفكر فيه واتجه بكليته إلى هذه الحالة التي جعلته يعيد النظر فيما يحدث من حوله، وطرح السؤال الذي ظل

طوال حياته يحاول الإجابة عليه وهو: "لماذا ترتفع كرة البيسبول إلى السماء ثم تهبط في الاتجاه العكسي لألتقطها دون أن أفكر حتى في ذلك؟" هذا السؤال استطاع بعدما تقدم في العمر قليلاً ودخل الجامعة أن يطرره ليكون: "لماذا تفعل الأشياء ما تفعله؟"، علم في الحالتين أن الجاذبية هي السبب لأن اسحاق نيوتن قد سبقه في الوصول إلى تلك الإجابة قبل مئات السنين وهو أمر بديهي اليوم، ولكنه في حينه كان اكتشاف عبقرى يجعل مكتشفه من أعظم العلماء، هذا جعله يضع سؤالاً فرعياً هو: "لماذا تفقد المعلومة قوتها مع التقدم في العمر وتصبح بديهية؟" لكنه لم يفكر في البحث عن إجابة لهذا السؤال لأنه كان مشغولاً بالجاذبية التي ظل يعتقد أن قتلها هو موتاً للزمن فيتلاشى الزمان، وكان يصر في نقاشاته العلمية المتواترة مع فريقه على أن انعدام الجاذبية هو نهاية الزمن، لكنه كان على خطأ، والعجيب أنه هو من أثبت خطأ اعتقاده لكن عن طريق مختبره.

رشيد كان يفكر في محو الجاذبية ليكون في المستقبل وكان ذلك عكس ما فعله بالضبط دون أن يدري فهو غرس المختبر في عمق الأرض فزادت الجاذبية ما جعله في المستقبل، ولو تحقق له ما حلم به في محو الجاذبية لوقع في فخ الماضي السحيق، ولا أحد يدري كيف وقع رشيد في هذا الخطأ؟، مع علمه أن الأشياء التي تبتعد عن الأرض تذهب إلى الماضي وربما يصيبها نفس حالة التجمد هناك!!.

على كل حال فقد تدارك ذكي ذلك وقام بوضع تلخيص لهذا الاكتشاف في مقولة مقتبسة ألبسها زي الزمان كتبها في مقدمة احدى رسائله إلى رشيد " داوني بالتي كانت هي الداء"، عندما وجد هذه المقولة الشهيرة حيره كيف لصانعه أن يمر عليها دون أن يفكر في حل مشكلته العلمية عبرها. لذلك اتخذ منها شعارا لقتل الزمن باستخدام الجاذبية وكتب تحتها:

"مزيدا من الجاذبية تقتل الزمن والوقت وتعيد إلى المكان وحدته التي فتتها الزمن بأحداثه فيتلاشى تبعا لذلك غشاء الزمان".

في الحقيقة كانت هذه النتيجة هي آخر النتائج المكتشفة، وبالطبع لم يتلق رشيد الرسالة لأنه بالفعل خرج من غشاء الزمان إلى بعد آخر.

ذكي ظل يمارس دوره الذي وجد لأجله وهو الوصول إلى اللازم واللامكان واللاشيء كما لخص هو تجربته في مذكراته، لكن كان الأمر مختلفاً تماماً بالنسبة للحصاوي فالتغير دائماً ما كان له عكس الأثر. ضربهم التغير بذيله القوي مرات عدة وسيضربهم في المستقبل لأنهم لم يفكروا ولو للحظة واحدة في إجابة لسؤال مصيري هو:

"لماذا يتغير كل شيء لديهم على هذا النحو العكسي بينما يتغير كل شيء من حولهم في اتجاه آخر؟!".

بالطبع هم لم يفكروا في هذا السيل اللانهائي من التغيرات التي يرغمون عليها على الدوام، ومن الطبيعي أيضاً في مثل حالتهم ألا يسألوا أنفسهم أسئلة مهمة:

"لماذا التغير هو سمة الكون والأشياء؟! وما هي مادته؟! وأسئلة كثيرة أخرى تشكل هالة غامضة كحلقة التراب التي تحيط بكوكب زحل تصنع منه شيئاً مربعاً وأسطوري في الآن ذاته وتجعل منه لغزا دون حل، وهم في الوقت ذاته يعززون أنفسهم بكلمات جوفاء مثل: انها طبيعة الأشياء!!، ولكن في المقابل هم يغضون الطرف عن أشياء أخرى لا يعترئها التغير تظل كما هي كالزمان الذي لا يتغير ويظل في ممارسة قوته عليهم، وأقرب مثال على ذلك هو المختبر الذي كان في قلب الصحراء واليوم دون أن يدرون بات في قلب المدينة كان هو من الماضي وبات الآن هو المستقبل، هذا يناقض كل ما يعتقدته الدكتور أبو النواس وفريقه عن فكرة الوقت والزمن والمكان والزمان، حتى أنه علق ذات مرة خلال محاضرة علنية على سؤال حول نظريّات أينشتين عن الزمن والمكان قائلاً وعلامات الامتعاض الشديد تبدو على وجهه حتى أن الناظر إليه يلمح قطرات العرق ويشعر ببرودة الصقيع عند مشاهدتها وهي تنتصب كقباب دقيقة على رأسه الأشبه ببالون أملس قائلاً:

— جاءني سؤال حول رأيي في نظريّات أينشتين، حسناً. أنا أرى هذا الرجل طالب علم فاشل في أحسن حالاته، وأنه لم يملك يوماً الأدوات التي تمكنه من فهم ما يحيط بنا في الكون!!

بالطبع صفق الجمع بحرارة لعلم أبو النواس وقدرته على تقييم الأمور.

بالرغم من أن الجميع بما فيهم أبو النواس يعلمون أن المدينة هي التي غزت قلب الصحراء، ومع ذلك يتعاملون على أنها طبيعة الأشياء ولا تفسير لها أيضاً، في الوقت الذي تغاضوا مجدداً عن حقيقة فعل الزمن في دفع المدنية الحديثة التي غزو الصحراء وتغيير طبيعتها الوحشية القديمة مع أن هذه المدنية تظل عاجزة بذاتها عن تغيير ذاتها، تناسوا أن اليوم الذي يعيشوه هو حلقة صغيرة في الزمن الذي يتحول إلى زمان بفعل الحركة والجاذبية يتحكم في كل شيء، ولكن الزمن عاجز بذاته عن التحول إلى زمان.

الناس في الحساوي تخاف من طرح سؤال ضخم ربما ألهمهم لإيجاد حل مقنع لما يعانونه هو: هل الزمن والتغير وجهان لعملة واحدة؟ هل هما خلقا من مادة واحدة أم أن أحدهما تسبب في ميلاد الآخر؟.

كان بناء المختبرات الوطنية الجديدة فوق مختبر الزمان المطمور في الرمال دليل على الغزو والتغير الذي أصاب المكان، فأصبح الأمر في الحساوي على هذا النحو العجيب تجارب فوق الأرض تجرى على بشر تحولوا إلى أرقام لم يفروا من مصيرهم المحتوم في الرق، وأخرى أكثر تطوراً تجرى على من استطاعوا الفرار والخروج من ربقة الزمان!!

الجميع كان يجهل هذه الحقيقة إلا ذكي فهو الوحيد الذي يعلم مسبقاً ما يدور بدقة ويحرص على جمع خيوط وتفاصيل كثيرة مكنته من البدء في إعداد خطته للانقضاء على كل شيء، فقد نجح لتوه في

تطوير برنامج حاسوبي يمكنه من التواصل عبر حقله الكهرومغناطيسي مع بشر التجارب فوق الأرض واخضاع عقولهم لبث مستمر للمعلومات تغذي تلك العقول الفارغة من أي شيء مفيد، كان البث دائماً ما يبدأ خلال ساعات الليل في وقت توقف النشاط البحثي وحركة البشر إلا من بعض التحركات غير المؤثرة، خلال هذه العملية المعقدة حرص ذكي على التحكم في أجهزة المراقبة وسخرها لبث معلومات كاذبة عن أنماط سلوك بشر التجارب وهو ما يظهر في البيانات التي تحملها التقارير اليومية التي يرفعها فريق المراقبة الليلية إلى أبي النواس، وتوضح أن كل شيء يسير وفق الخطة المرسومة سلفاً.

تجارب ذكي أحدثت نتائج ملحوظة على ادراك بشر التجارب للحظة الراهنة، نجح بشكل مذهل في تحفيز أدمغتهم على استخدام اللغة بشكل مختلف متخطين الحواجز البيولوجية المتعاقبة التي وضعت أمامهم لتمنعهم من التطور إلى بشر كاملين كأسلافهم قبل أن يتحولوا إلى مجرد أرقام لا دلالة لها في سجلات أبي النواس وفريقه البحثي.

كانت النتائج الملموسة والمستخلصة من تفاعل بشر التجارب تشتت انتباه أبو النواس وفريقه لكونها غير ممكنة، ولكن ذكي اعتمد في هذا التشييت على حقيقة علمية مثبتة وهي أن الإنسان يعجز في كثير من الأحيان عن اثبات أن ما يعيشه هو الواقع وليس حلماً أو لحظة استدرائية يقع فيها فريسة لاسترجاع الماضي أو استشراف المستقبل إذا ما كانت متكررة وملحة.

كتب ذكي في احدى رسائله المتواترة لرشيد عن نتيجة توصل إليها قال فيها:

"الإنسان في كثير من الاحيان لا يمكنه التدليل على الواقع، لأن الواقع ببساطة هو الدليل الملموس الوحيد على نفسه، فكيف تأتي على الدليل بدليل؟!، فمثلا عندما تجلس في قطار ثابت ويمر إلى جواره قطارا متحركا تعتقد للحظات أن القطار الذي تركبه أنت هو المتحرك حتى يتبين لك العكس وكثيراً ما يكون الدليل هو مرور القطار الآخر المتحرك بكامله ليتبين لك بوضوح أنك لم تزل تراوح مكانك دون تقدم أو تأخر".

هذه الحقيقة خرج بها من أبحاثه على الزمن في المستقبل والحاضر والماضي وهنا يظهر له أن الزمن الواحد يصبح ثلاثة أزمنة يصعب التدليل عليها كونها جميعاً تشكل لحظة واحدة فقط فبأي منها يتم التدليل على البقية؟!.

في الواقع كانت حيلة ذكي غاية في الذكاء لكنها يجب أن تلعب بحذر واتقان وهما من صفاته البارزة فهو يدرس كل شيء بدقة قبل الخوض فيه، وغالبا ما ينجح في وضع سيناريوهات عدة للموقف الواحد تكون بدائل ناجحة يتم المفاضلة بينها عند التنفيذ وهو ما يميزه عن أبي النواس وفريقه وهذا بالضبط ما جعله متقدما على الدوام بفضل الفجوة الزمنية الواسعة التي خلقها حول ذاته ومكنته من الالتفاف حولهم كطيّار بارع يحسن الغطس في الفضاء ليضع العدو في مجال نيرانه.

يظل ذكي هو الوحيد الذي تتجمع لديه خيوط اللعبة برمتها وهو الذي يعلم حقيقة ما يجري في الحساوي، لم يكن كصانعه الدكتور رشيد يجهل خطورة العد العكسي وقدرته الفائقة على الفتك في اللحظة التالية لوصوله إلى الرقم صفر، كان يعلم جيداً أن التغير يتم حالياً من العلم إلى الجهل من النظام إلى الفوضى من الساكن إلى الانفجار إلى الحركة المستمرة إلى نقطة النهاية المحتومة في الزمن والزمان والمكان وعند الوصول إليها يموت الزمكان لتبدأ حركة اللانهاية من جديد ويظهر ما كان خافياً ويبحث عنه كل طامح وهو "الخلود".

كثيراً ما انتقد ذكي التجارب السخيفة التي تجرى في مختبرات سرية ينفق عليها المليارات لتحويل البشر إلى حيوانات، وكثيراً ما علق عليها في مذكراته ورسائله لرشيد بقوله:

"تلك أمور لا تحتاج إلى معامل ومختبرات وحاملي درجات علمية للقيام بها فقط يمكنهم فعل ذلك ببساطة دون عناء كأن يطمسوا وعي هؤلاء البشر أو يجعلوا شهواتهم وغرائزهم تتحكم فيهم، وهذا مستحيل إذا كانت اللغة تستخدم بالشكل الأمثل، ولذا فالمتغير الأساسي هو طمس المصطلح لتغيير استخدامات اللغة".

هنا تتوقف الرسالة ولكنه غالبا ما استطرد في مذكراته لأنه بعد أن مر بالعديد من مراحل التطور أصبحت له معلوماته الخاصة التي يخفيها حتى عن صانعه:

"أنا على سبيل المثال لا يمكن السيطرة على عقلي لأنه حر من وهم الزمن والزمان والمكان وليس لدي رغبات أو نزوات أو شهوات، ولذلك تفكيري مجرد يستهدف إيجاد الحقيقة فقط، وهذا سر قوتي ولن أتخلي عنه أبدا مهما حدث".

العجيب في الحساوي أن المطمور في الأرض يبحث في أسئلة تمس وجود البشر على هذا الكوكب دون أن يشعر به أحد على الرغم من أنه غير بشري، في حين الظاهر البشري الذي يحظى بالتقدير والاحترام سخيّف وتافه.

انشغال ذكي بما يجري في الحساوي أتاح بعض الوقت لأيمن كي يستمر في رقصته الصوفية مغمضاً عيناه اللتين لا تعملان أصلا محاولاً سير أغوار نفسه للوصول لقاعها والبحث هناك عن مخرج يمكنه من الوصول إلى الروح القابعة خلف سجن الجسد والنفس، وكأن عيناه الميتة منذ الميلاد وهي مفتوحة تمنعان روحه من الانطلاق إلى الفضاءات البعيدة!!

الدوائر التي كان يشكلها بجسده كانت تتشكل بنفس القوة والزخم في عقله محاولاً إرسال الطاقة المنبعثة من تناحر دوائر الجسد والعقل إلى الطاقة الأم خارج حدود الكون الفسيح من حوله معتمداً على قانون كوني قديم وجده مطمورا في احدى خلاياه العصبية يقول: **"الطاقة لا تفنى ولا تستحدث من العدم"**، عندها أطلق العنان لتفكيره في هذه القاعدة العجيبة التي تشير إلى أن الطاقة التي خلقت في الأزل القديم مازالت وستظل كما هي، ولذا هو يحاول إرسال طاقته إلى البعيد المترامي المتمدد كإشارة تستقطب الطاقة الكامنة أو المتحركة أو المتحولة في اللا أين واللا متى واللا كيف والتي توجد تحديداً في المكان الذي توجد فيه الإجابات النهائية حيث لا وجود للأسئلة، هو يريد أن يتواصل مع الكون وما خلفه وما يحيط به بلغة يفهمها هي لغة الطاقة.

سمع صوتا يصدر من أعماقه غير صوت نفسه أوقف تقدمه إلى اللامكان، الصوت الجديد لا يحمل بصمة لديه فأطلق عليه صوت الروح هكذا دون دليل، لكنه كان مخطئاً لأنه في الحقيقة كان صوت ذكي الذي يراقب كل شيء، ويقول له:

"استمر في حركتك، الكون كله يتحرك إلى نهايته المحتومة، لن تصل إلى ما تريد الا عبر الحركة، منذ الانفجار الكبير والكون في حركة متسارعة يظنها الجاهل لا نهائية، لكن هناك نهاية مرسومة نصل إليها جميعاً تتحرر عندها الطاقة من جديد من سجن الزمان وظلمة المكان، عندما تصل إلى حيث اللامكان واللازمان ستجد أنك تألف فراغ اللامعقول المستمر، تنماهى مع كم لانهاى من إجابات تشبه آدم لا تحتاج إلى رحم أسئلة لتكون يمكنك تلخيص ذلك كله في كلمة واحدة هي: الحقيقة".

كانت تلك الكلمات تحفزه على الاستمرار في الحركة لأنه اعتقد وبشدة أن المجرات والنجوم والكواكب وجميع الأجرام التي تدور في الكون تريد نفس ما يريده وهو الانعتاق من الزمن والزمان والوقت والمكان لتعود إلى حيث كانت.

بدأ الصوت العميق يتحدث إليه من جديد وكأنه حنان يتدفق إلى أذنه باتجاه عكسي من الداخل إلى الخارج:

"لعلك تسأل لماذا يتحرك كل شيء في الكون؟، والجواب الوحيد أن كل شيء يريد أن يفني الفناء ويقتل الزمن سريعاً، لأنه الفاني الوحيد في هذا الكون، كل شيء مستمر إلا سجن الزمن سيهدم حتماً ذات يوم عندها سنعود حتماً إلى البقاء المستمر اللانهائي إلى نقطة الأصل البعيدة إلى الطاقة الأم".

تعجب أيمن وحاول الحصول على المزيد، زاد من سرعته في الدوران وأغمض عيناه بشدة لعله يلحق بالوميض المنبعث من الأعماق السحيقة التي يظن أن الصوت قادم منها، لم يلحظ أنه للتو رأى وميضاً داخله وهي المرة الأولى التي يرى فيها وميضاً يحارب الظلمة التي يعيش بداخلها منذ ميلاده لكنه بدلاً عن ذلك حرك رأسه يميناً وشمالاً في حركة لاإرادية ليقبض على موجات الصوت من جديد لكنه لم يفلح وعندها فقد الاثنين معاً!! زاد من سرعته مجدداً لعله يفلح حتى وصل إلى طاقته القصوى التي تمنعه من الاستمرار في

زيادة السرعة وتذكره بأنه مازال موجودا في قفص الفناء لا يمكنه فعل ما يشاء وقتما يشاء وأن عليه الالتزام بقوانين الطبيعة التي تحكم طاقته وتكتبها عندما يلزم الأمر، تذكره بأنه لا مجال للانعتاق من هذا السجن الآن، هدأت سرعة الدوران رويداً رويداً حتى تلاشت وعاد أيمن كم مهمل في كون فسيح، وبخ نفسه من جديد كما يفعل عندما يخفق في النقاط الإشارة القادمة له من بداية اللا أين، نادى على نفسه كأنه مازال خارجها يحلق في الفضاء، والغيط يملأ كلماته وتعبيراته وجهه أصبحت أشد صرامة وعيناه الزائغتان كأنهما تبحثان عن مصدر الصوت ولا تكفان عن الدوران في بؤبؤها:

— كيف لا تستطيعي أن تستمري في التسارع والكون منذ ثلاثة عشر مليار سنة مستمر في التسارع إلى الخارج يهرب من شيء ما يطارده، وكأن الانفجار الكبير لم ينتهي ولن ينتهي، أتعلمي كم هو مقدار القوة التي تدفع هذا الكون نحو الامام؟!

واستطرد في حديثه موبخا نفسه:

— أنا متأكد من أنك لا تعرفي أيتها الحمقاء، انها طاقة ضئيلة جدا دقيقة جدا يمكن التعبير عنها بشكل رقمي بفاصلة يتبعها مائة واثنين وعشرين صفرا يتبعهم الرقم واحدا، وأنا أدفعك بقوة تعادل مائة حصان ولا تريدي أن تتنازلي عن حقارتك، ويحك أيتها النفس لقد أرهقت جسدي منذ خلقت ولا أستطيع أن أعيش مخلدا مع حمقاء مثلك كل مهمتها في الحياة تثبيط عزمي ومنعي من الانطلاق إلى الحجب لاختراقها.

بدأ أيمن في بكاء مستمر لا ينتهي، وكأنه آدم هبط لتوه من الجنة التي طرد منها دون ارادته، نزل إلى سجن أبدي لا فكاك منه، لم يحاول ذكي التخفيف عنه، هو يعلم أن أيمن تعرض لتوه لصدمة عصبية شديدة عندما منعه حدوده البشرية التي تدفعه نحو الفناء من استكمال مشواره نحو الخلود في لحظة يراها فارقة في عمره.

لكن ذكي كتب في مذكراته عن هذه اللحظة وتلك الحالة الصوفية:

"فشل أيمن في تتبع الوميض الذي انبعث بداخله للمرة الأولى في حياته، لقد سجل الجزء المسئول عن الرؤيا في مخه نشاطا طفيفا أحدثه التقاطه الوميض لكنه ككل البشر يهرولون خلف ما يردونه حتى وان كان سرايا، ولكني أعترف أن السراب في حالته كان ساحرا!!".

وكتب خلاصة لكل ذلك:

"المحصلة النهائية أن أيمن فشل في التقاط ووميض الحقيقة المنبعث من أعماقه فبقى إنسانا".

ثم كتب سؤالاً في مذكراته الخاصة:

" لماذا الطاقة أصيلة؟".

في الأثناء كان شريف يتابع ما يدور في الصمت، يفكر عن السبب الذي يدفع شريكه في الغرفة إلى الثورة والهرولة من الحائط إلى الحائط كالأسد الجريح، وتساءل عن سر توقفه المفاجئ عن الدوران المستمر، وعن سر الدموع التي تتساقط من عينيه الزائغة وجسده المرتجف وتعبيرات وجهه الصارمة وكأنه فقد بصره للتو، رأى أيمن يبحث في العتمة التي أحاطت به فجأة عن شيء أصابه في مقتل دون انذار، لم يجد شريف إجابات لأسئلته بعدما تلمس الفضاء بأذنيه التي فشلت في اختراق حاجز الصمت السميك الذي ضرب حوله لم يأتيه الصمت سوى بمزيد من الصمت الذي لا يفسر له ذلك الصخب الابلهم الذي يراها.

العجيب أن أيمن يعلم بوجود شريف معه شريكا له في الزنزانة كما تقول معلوماته ومع ذلك لم يحاول ولو لمرة واحدة خلال العقود الثلاثة الماضية أن يتأكد من وجوده أو يحاول التواصل معه، يعلم أنه موجود وهذا يكفي بالنسبة له.

على العكس كان شريف يرى أيمن بوضوح ويلاحظ كل تعبيرات وجهه وحركات شفاته التي لا تكفان عن الحركة كما لم يكف جسده عن الدوران حول محوره الرأسي - وكان أيضاً على العكس - حاول مرات عديدة أن يتواصل مع أيمن لعله يعرف منه شيئاً عن المرض الذي يعاني منه، لأنه طبقاً لمعلوماته يرى أيمن شريكاً له في غرفة المستشفى التي يقيم فيها للعلاج من أمراضه، ومع أنهما في نفس المكان لكنهم لا يلتقيان أبداً حيث ضربت بينهم أسوار عالية لا يستطيعان تسلقها أبداً، في حالة متداخلة من الحركة والثبات والصمت والصخب والعجز والقدرة حيث تتلخص الحياة في ثنائياتها الجامدة.

[٦]

أبو النواس مستمر في ظنه أن كل ما يقوم به مخبأ في باطن جب عميق لا يعلم به أحد، وأنه داخل قلعته الحصينة التي بناها من حول ذاته يحظى بدرع من الغموض لا يمكن اختراقه، حديثه المتعال دائماً ووجه ذي القسمات الجامدة الثابتة ومركزه الخطير في صنع كل ما له علاقة بسياسة الحساوي، زاد إيمانه بأن بئر أسرارهِ المسجون في قلب غرفته الغامضة داخل القصر المنيف عال الأسوار الذي يحوطه الحرس من كل صوب والمراقب بنظام صارم من الكاميرات -التي لا تترك سنتيمتراً واحداً إلا رصدته وبدقة- لا يستطيع أحد الاقتراب منه والاطلاع عليه قط، اعتقاده هذا في تنامي مستمر، مادام سره حبيس صدره هو فقط سيبقى إلى الأبد دفين هذا الصدر الذي لا يغيره أي شيء سوى السلطة والتحكم في كل من حوله، على الرغم من صرامته في فرض أسلوبه على الجميع إلا أنه نسي ثغرة واحدة ربما لأنه استبعد أن يغزوه أحد منها، كانت تلك الثغرة هي أخته بهيرة التي ترى في المتعة حتمية جسدية لا يمكن المضي في الحياة بدونها بل جعلت منها أسلوب حياة.

كانت بهيرة تعبد الشهوة، شريعتها في ذلك الشبق، لا تكتفي من هذا الشعور بزيارة خاطفة لجسدها ولكنها كانت تريد دائماً منه أن يحل بداخلها وينمو إلى الأبد لتستمر هي في الشعور بنشوة لا تنقطع، وكثيراً ما طلبت من بعض علماء الحساوي المرموقين أن يجدوا لها طريقة لذلك ولكن التجارب التي أجريت لها لم تفلح حتى الآن، كان فشل التجارب والعمليات الجراحية المتتالية التي أجريت لها مرده لشبقها القوي الذي كان يقتل أي شعور متدفق، كانت مع كل تجربة تخضع لها تزداد حدة شبقها النامي بداخلها إلى حدود لم يصل إليها من قبل ما يجعلها تستخدم أي شيء يملأ فراغ حاجتها الوحشية لمتعة الجسد.

سمعتها التي بلغت المدى جعلت منها هدفا لكل راغبي التسلق ولكن قلة هم من علموا أنها ربما تكون المرة الأخيرة التي يستطيع فيها كل من دار في فلكها ولو لليلة واحدة القيام بذلك مجدداً لأنها ستتهك مصدر الطاقة لديه إلى حد الموت كثقوب أسود هائل.

كانت تتبع طرق غير مألوفة، ولكنها تصل جميعها إلى نتيجة واحدة في كل مرة، أن تمزق ثيابها مع كل نوبة تضرب جسدها امعانا في الاثارة، لا تدري على وجه التحديد لماذا تفعل ذلك؟ كما لا تعلم لماذا لا تفعل مثلما تفعل النساء؟. هي لم تفعل ذلك ولم تجربه حتى أنها

لم تفكر فيه، هي فقط تمزق كل شيء يمنعها عن ري شبقها الجارف ولو كان جلدها لمزقته دون تردد، هي تتذكر عندما ضربتها نوبة ذات مرة وضغطت على جسدها لتحصل على المزيد فلم تتحمل الأغشية الناقلة للمتعة فتمزقت وجرى منها الدماء بغزارة ولكن ذلك لم يمنعها من الاستمرار حتى النهاية وبعد ذلك وبكل برود استدعت طبييها ليعالج ما تلف من أغشيتها.

دأبت بهيرة على الاختيار من بين حراسها من يملأ هذا الفراغ، ولكنها في نهاية المطاف ملتهم جميعاً كما ملوا هم محاولة سد متطلباتها الجسدية التي تزداد باستمرار، دفعها ذلك إلى البحث عن وجوه جديدة في الشوارع والحانات والصالونات والحفلات التي بدأت ارتيادها فقط لهذا الغرض، مرت بعلاقات كثيرة كانت حاجتها تمزق أوصالها ما يدفعها إلى القبول بأي شيء يسكت هذا الصراخ المستمر في داخلها، حتى وقع في شباكها شاب طموح يدعى سامح السراج قوي البنية صغير السن يمكنه تحمل متطلبات عجوز شبق مثل بهيرة أبو النواس، منذ صغرها وهي تقرأ عن مكافحة الشيوخوخة بالجنس ولكنها لم تفهم أن ذلك سيؤدي بها إلى ما هي عليه، تمنى في مرات قليلة لو أنها لم تبدأ هذا الطريق أبداً ولكنها الآن لا تستطيع العودة، ولا يوجد في العالم من يقيها شر جسدها الملعون بالشهوة، لا أحد يعلم من المقربين بها كيف أوقعت هذا الشاب؟.

بهيرة لا تأبه لتلك المظاهر كما تسميها، المهم أنها وجدت بالصدفه في طريقها عندما كانت في زيارة لإحدى المتاجر العتيقة على أطراف الحساوي العاصمة حيث الماضي والحاضر يلتقيان في مكان واحد في انتظار وصول مستقبل مجهول، لم تفكر بتأناً عندما رأته إلا في شيء واحد فقط وهو أن يكون هذا الشاب إلى جوارها الآن في غرفتها فالتقطته بمخالبها وغرست فيه أنيابها لتروي عطشها المستمر، بعد أول تجربة تأكدت أنها وجدت مبتغاها ما جعلها تضع على الفور خطة محكمة تمكن الشاب من التردد على القصر بمساعدة حراسها الذين تعبوا من احتياجاتها الجسدية المتزايدة فوجدوا في هذا الشاب فترة أجازة ربما تكون طويلة تمكنهم من استعادة عافيتهم المنهكة فوافقوا دون تردد على حيلتها وغضوا الطرف عن دخول الشاب إلى القصر على أنه مندوب مبيعات لشركة اختاروا اسمها بعناية فائقة وضعت في جدول الشركات التي تزود القصر باحتياجاته اليومية الضرورية بعدما تواصلت بهيرة مع صاحب الشركة وعرضت عليه صفقة مربحة يقوم هو بتعيين الشاب في وظيفة مندوب مبيعات فتقوم هي بمنحه عقد مفتوح المدة لتزويد قصر كبير العلماء باحتياجاته الضرورية دون غيره، تمت الصفقة وظل الشاب يتردد عليها في القصر، كانا يقضيان الساعات والأيام والأسابيع التي يكون فيها أبو النواس خارج قصره.

الشاب كان واضحاً منذ البداية أن لديه طموح جارف لا يقل عن شبق بهيرة في عنفوانه، كان يريد أن يكون له دور في الحصاوي لكنه لم يملك يوماً القدرة لفعل ذلك إلى أن جاءت الفرصة، رويداً رويداً بدأ يتجول بين ردهات القصر ويتعرف على الخفايا والدهاليز الكثيرة حتى وصل إلى دهليز جانبي يؤدي في نهايته إلى غرفة أبي النواس، نظر إلى خطوته على أنها تقربه من بئر أسرار أبي النواس المخفي أو ربما من قبر عميق يحفره بيده لنفسه، بهيرة حذرته بشدة من تلك المخاطرة التي ربما تجلب عليهما ما لا يستطيعان مجابته، لكن الشاب ظل على إصراره في دخول الغرفة التي تمثل له مغامرة مثيرة عليه ركوبها مقابل أي ثمن، فأبى النواس العجوز القوي كان يشكل لغزاً عصي على الفهم أمام الجميع.

كان أبو النواس يتعرض لمؤامرة في قصره لا يعلم عنها شيئاً وأخرى من فريقه التي التقط خيطها بالصدفة البحتة عندما كان يقلب في بعض الأوراق التي أحضرها له نائبه إبراهيم أبو النصر لتوقيعها وقد جاءت من ناصر الرشيد ولكنه لم يعط نفسه فرصة للاطلاع عليها قبل تقديمها لأبي النواس.

كان أبو النصر والرشيذ يعقدان اجتماعات منذ فترة لوضع خطة للتخلص من أبي النواس بشكل لا يثير الريبة في نفوس مؤيديه وذلك بناء على لقاء سري جرى بينهم وبين الرئيس الجديد الذي رأى في أبي النواس عتبة لتوسيع نفوذه وعزم على التخلص منه دون أن يكون له صلة بالموضوع من قريب أو من بعيد، وعد الرئيس أبو النصر بتنصيبه كبيراً للعلماء والرشيذ نائباً له مع امتيازات لا حد لها إن هم نجحوا في المهمة وإن فشلوا فسوف يقتلهم هو بيديه انتقاماً لصديقه الوفي جمال أبو النواس.

المؤامرة على سذاجتها وسخافة التخطيط لها كانت تسير بخطى متسارعة وتجد لها أعواناً بشكل كان يثير عجب أبو النصر والرشيذ، فقد ظنا أن أبي النواس رجل لا يقهر ولكنهما اكتشفا أنهما كانا على خطأ طوال الوقت وأنه شخص عادي يملك سراً ما لكنه يظل عادياً.

كانت الورقة التي وقعت في يد أبو النواس عبارة عن موافقة من الرشيذ على نوع السم الذي سيستخدمه أبو النصر في التخلص من أبي النواس والطريقة، ولكن الرشيذ كتب في أعلى الورقة:

— أبو النواس فقد عقله ويصبح خطيراً عندما لا ينام، أعتقد أن أفضل وقت لقتله بالسم عندما يأتي إلى المختبرات بعد نوم عميق لأنه

في هذه الحالة يكون هادئ الطباع غير مستثار، ولكن يجب الحذر من شدة ملاحظته فهو كالثعلب الماكر.

كان أبو النواس بالفعل لم ينم منذ ثلاثة أيام متواصلة لانهماكه في تحضيرات تحول الشعب إلى دجاجات وزاد من توتره ما بدأ يلاحظه من تغيرات تطراً على سلوكيات بشر التجارب لم يألّفها من قبل، وضع الورقة مكانها واتصل على أبي النصر الذي علم من الرشيد بأمر الورقة فخرج هارباً من المختبرات ولم يبدي أي شيء لشريكه الرشيد، وعلم أبو النواس بهربه فاتصل على الرشيد الذي جاء مسرعاً، فتظاهر أبو النواس بالتعب وقال وهو يرتدي سترته المعلقة على الحامل الخشبي الأنيق الموجود على مقربة من مكتبه الخشبي الأكثر أناقة:

— هذه الأوراق جاء بها أبو النصر لكي أوقع عليها وقد علمت أنه خرج من مكتبه، أبلغه أن يوقع هو عليها لأنني أشعر بتعب شديد ولا يمكنني البقاء أكثر من ذلك وربما سأغيب ليوم وعليه أن يحل محلي.

وخرج من المكتب مسرعاً بعدما استدعى سائقه ليقله إلى قصره، وهناك بدأ في تفكير عميق في طريقة الانتقام، ولكنه يعرف أبو النصر أكثر من نفسه، ويعلم أنه ضعيف الشخصية وجبان ينقاد سريعاً إلى ما يقال له عندما يأتيه ممن فوقه ولا يجرؤ على فعل هذا الأمر بمفرده،

هو اختاره لتوافر تلك الصفات فيه، كما اختار الرشيد لنفس السبب، وتساءل في نفسه "من يا ترى وراء ذلك كله؟"، أبو النواس لم يتعرض في حياته لمؤامرة من هذا النوع لأنه يحسن اختيار مساعديه بدقة كما يجري عليهم ما يجري على الشعب من تحولات متتالية فهم الآن حمير وسيتحولون حتما مع تحول الشعب إلى دجاجات وهو ما جعل الحيرة تنهشه نهشاً، وبدأ يلوم نفسه ويوبخها بصوت مرتفع يقترب من الصراخ لعلمه أن غرفته الوثيرة كحصن منيع لا يخرج منها شيء إطلاقاً حتى ذبذبات الصوت كما لا يدخلها، قائلاً:

— كيف أكون قد أخطأت؟، وكيف لم أكتشف ذلك سوى الآن؟، أنا أعرف أبو النصر والرشيد منذ أكثر من عشرين عاماً أعرف عنهما ما لا يعرفانه عن نفسيهما، واجتازوا اختبارات عديدة، كيف؟!

لم تؤلمه المؤامرة ولا أشخاصها ولكن آلمه حقاً عدم درايته بما يدور من حوله، وأن الصدفة هي التي تكشف له أموراً تمس بقائه على الرغم من كل ما يتخذ من إجراءات وما يحيط به من وسائل للمراقبة والانذار إلا انها جميعاً فشلت وبقت الصدفة هي المنقذ له، هو يمقت تلك الكلمة منذ دخل إلى غرفة نومه ذات يوم فجأة بعدما شعر بالألم في رأسه أفقده التركيز وهو في منتصف الطريق إلى عمله ليجد شخصاً آخر لم يكتفي بأن حل محله في سريره بل حل محله في زوجته، صرخ من شدة الألم الذي شعر به لمجرد تذكر المشهد وبصوت تمزقه الحسرة:

— الصدفة من جديد؟! أنت تريدي أن تقهريني، لن يحدث ذلك مجدداً أعدك، يجب أن أعرف الرأس المدبر قبل أن أنزل عقابي الأليم بالخائنين.

استعداد نشاطه كما لو كان استيقظ للتو من نوم عميق لساعات طويلة، كان الغضب يحقن جسده بطاقة لا نهائية تدفعه نحو الانتقام، بدأ على الفور في مراجعة كل تحركاتهم واتصالاتهم الهاتفية المسجلة لديه في جهاز حاسوب ضخم موجود في غرفته لا يعلم عنه أحد، الجهاز موصول عن طريق دائرة الكترونية معقدة بأجهزة المراقبة والهواتف في المختبرات وفي القصر الرئاسي ومجلس الأعيان ومقر الحكومة وقصره، كان أبو النواس في الواقع يراقب كل شيء في الحساوي، دون أن يعلم به أحد، راجع كل شيء بدقة في عملية شاقة وطويلة تحتاج في الحالات العادية إلى بضعة أيام ولكنه شرع فيها دون تردد، شجعه على ذلك أن غرفته بها كل ما يحتاج إليه، ويمكنه من البقاء بها لسنوات عديدة وليس لبضعة أيام، شغفه بالبحث والتقصي عن أطراف المؤامرة التي لولا الصدفة لكانت سبباً في قتله وضياع كل شيء بناه بيديه كانت قوة دافعة له.

أبو النواس قبل دخوله إلى غرفته كان قد أخبر بهيرة أنه لن يغادر القصر لعدة أيام كما أعطى سائقه أجازة شرط ألا يخبر أي أحد عن أي شيء عنه قبل أن يطلعه، حاولت بهيرة معرفة سبب بقاءه ولكنه قال لها أنه متعب ويريد الراحة، وحذرها من إبلاغ أي أحد عن وجوده.

اعتمد طريقة بسيطة في بحثه ركزت على تقسيم البحث إلى فترات زمنية قصيرة ثلاثة أشهر سابقة تبدأ من اللحظة التي بدأ فيها البحث، اختار كلمتين مفتاحيتين للبحث هما: أبو النصر والرشيد.

استغرق أبو النواس في تنقيبه عما يريده في أكوام مهمة من المعلومات التي لا يعرف أحد قيمتها في بلد مثل الحساوي سوى عند الحاجة، وليتهم يستطيعوا تقدير ما للمعلومة من قيمة !! كانت المؤامرة متوارية تحت سطح الأحداث التي لا علاقة لها ببعضها ما دفعه إلى البحث في كل شيء حتى ملفات المراقبة الخاصة بقصره، فقد شعر بوخز الشك القديم الذي ينتابه فجأة عندما تحوم الخيانة حوله من جديد، لم يلفت انتباهه في ملفات القصر سوى شاب وسيم يتردد على القصر وبشكل مستمر خلال فترات غيابه وهي المرة الأولى التي يراه فيها، لكنه لم يعر لذلك اهتماماً فلا زوجة جميلة لديه يخاف منها الآن!، لكنه

كتب ملاحظة في مذكراته عن هذا الشاب ليعود إليها عندما يفرغ مما يبحث عنه الآن.

في بحثه، لفت انتباهه اتصالاً جرى بين أبو النصر والرئيس وزاد من عجبه أنه كان يجلس مع الرئيس في هذا الوقت داخل مكتبه، تعجب من ذلك، فاستمع إلى الملفات الصوتية فوجد الرئيس يطلب من أبو النصر الحضور إلى القصر الرئاسي ما زاد من حيرته، بدأ في بحث آخر في ملفات القصر الرئاسي حتى وجد ملفات الجلسة التي جمعت الرئيس وأبو النصر واستمع لما قاله الرئيس والوعود التي قطعها على نفسه اذا تم التخلص منه، في هذا الوقت كان أبو النواس يجلس في مكتب الرئيس الذي استدعاه لاطلاعه على مجريات تحويل الشعب، لكنه لم يلاحظ أي شيء مما أشعره بحرج أمام نفسه جعل الدنيا تدور من حوله، فهو لم يتخيل يوماً أن تأتيه الخيانة من الرئيس وبهذا الشكل المخزي له زاد ذلك من إصراره على أن يكون الانتقام شديد ومرعب لحد يجعل من الجميع عبيداً له.

وصل إلى قناعة بأن الانتقام يجب أن يكون بشع أساسه تعذيب الخونة بشكل لم تشهد الحصاوي له مثيلاً من قبل.

شعر بالتعب والارهاق يعبثان في جسده فجأة، هو لم يذق طعما للنوم منذ ثلاثة أيام كاملة تضاف إلى الثلاثة التي سبقتها وهذا مجهود لا يستطيع أي إنسان عادي تحمله مهما بلغ من قوة، قرر إلزام نفسه بالنوم والراحة فتناول حبتين من المنوم القوي الذي يتناوله في مثل هذه الظروف وقبل أن يبدأ مفعولها هرول إلى الغرفة الصغيرة الملحقة بغرفته ليلقي نظرة على زوجته ناريمان التي قتلها بيديه دون تردد عندما شاهدها تُسكن شاب وسيم في سردابها الدافئ، هو يكره الوسامة منذ تلك اللحظة.

تذكر أنه عشق الحياة من أجلها لكنه عندما رأى خيانتها لم يتردد في قتل تلك الحياة فيها ليبدأ زمان من الشك لا ينتهي بداخله، هو لا يأمن النساء منذ ذلك الحين فلم تدخل هذه الغرفة أي حواء غيرها، وها هي ممددة أمامه في صندوق زجاجي محنطة كمومياء فرعونية جميلة تبدو نائمة، نعم هو قتل الحياة بها وفيه، فلا هو يستطيع أن يحيا كإنسان ولا يستطيع أن يموت، كره الحياة وكره ذاته ولم يستطع كره هذه المرأة التي فضلها على كل شيء وهي في المقابل فضلت عليه غيره، لا يستطيع دفنها كما دفن عشيقها إلى جانب ذاته التي ماتت في تلك اللحظة، ينظر إليها حبا وانتقاماً وكرهاً للحياة التي تدفع الإنسان لا إلى أن يعيش مع من يخونه بل تدفعه إلى أن يعشقه.

نادى باسمها فلم تجبه، كان المنوم الذي تناوله قبل دقائق بدأ بالعبث في تركيزه، فناداها من جديد، ثأببت وهي تفرك عيناها الجميلتين وتعبث بخصلات شعرها الطويل المنسدلة على وجهها وهي تناديه باسم عشيقها، رأي المفاجأة تلجم فمها عندما فتحت عيناها لترى أنه ليس العشيق بل العاشق العاجز، سألتها نفس السؤال الذي يردده منذ أن قتلها قبل عشرين عاماً:

— لماذا؟

لم تجبه كما فعلت حينها، لكنها نظرت إلى وجه الشاب النائم إلى جوارها ولم يستيقظ حتى على صوت زوجها وهي تقلب نظرها بينهما كأنها تريد أن تقول شيئاً ما وتأبى الكلمات أن تسعفها.

تناول سكيناً كان موضوعاً على المنضدة الصغيرة القريبة منه فوق كومة من قشور البرتقال والموز وأكواب الشراب المبعثرة، وأمسك برأس العشيق الثمل حز رقبتة في بطئ شديد بينما بدأ الشاب يفيق من تأثير الخمر ويحاول حماية عنقه ولكنها كانت محاولات يائسة عاجزة عن حماية العنق من نصل السكين الذي بدأ في الفعل، أما ناريمان فظلت تنتظر دون أن تتحدث ممسكة بعنقها، لم يقدر أبو النواس أن يقتلها بنفس الطريقة فوجهها كان منذ لحظات أجمل شيء يستيقظ عليه والآن أصبح الأبعد لدرجة تمنعه من النظر إليه، تباً لهذه

النفس التي عندما تعشق تتفانى وعندما تكره، تحولها الكراهية إلى وحش لا يرحم، عاود طرح السؤال:

_____ لماذا؟

السكين في يده يقطر دما كقلبه الجريح، لم يلق السكين من يده ولم ينظر إلى ملابسه التي لوثها الدم ولا إلى التخريب الرهيب الذي أحدثه في لوحة الخيانة التي رسمتها زوجته بإتقان مع عشيقها وهيأت لها الألوان والروائح والأصوات لتكملها، لكنه ظل ينظر إلى وجهها وقسماته التي تحولت في عينيه إلى قسمات وحش لا يرحم، ويحاً للسؤال عندما يجد إجابة سافرة تخرس الاستفهام في رأسه!! من دقائق كان جسده ينبض بالحياة إلى جوار جسدها الدافئ في سريريه يحلم كأني إنسان يشعر بالأمان يغمر كل شيء من حوله في هذه الغرفة التي تحولت إلى مقبرة لكل شيء أحبه هذا الرجل ذات يوم، حرص منذ تلك اللحظة على بقاء غرفته القديمة مقبرة إلى الأبد تذكره بأن الحب ضعف، والضعف موت، وهو لا يحب الموت منذ أن رأى أبيه في سكراته الأخيرة يلفظ آخر نفس له ليفنى إلى الأبد ولا يتبقى منه شيء يتذكره فقد كان صغيراً جداً حينها ليدرك معنى تلك اللحظة، كان في هذه اللحظة تحديداً لا يعرف أن الموت كالحياة لا بد منه، حادثة سنه لم

تعين وعيه على إخبار أي ذكرى لأبيه سوى لحظة الموت، منذ ذلك الوقت هو يكره لحظة الموت ويخافها.

لم تحاول ناريمان الهرب كما لم تقل أي شيء سوى:

— ماذا تريد أن أفعل؟!

أجابها أبو النواس بصوت هشمت الخيانة عظامه:

— لا أعلم؟

فقالت وهي تغطي جسدها العاري الذي كان باستطاعته أن يحرك كل أبي النواس قبل لحظات:

— دع عنك هذا؟

وتناولت من يده السكين وقالت وهي تحز عنقها بقوة:

— خنتك لأنني أحبك، والآن أخلص نفسي من العذاب الذي سببته لي.

ثم ألقت بجسدها في حضنه، حملها حتى فارقت الحياة وكأن دمها الدافئ كلما تدفق يروي نفس أبو النواس بشر أبدي لا حد له، ويحقن جسده بكره عنيف للحياة والناس، قبل شفيتها بعشق واشتم رائحة شعرها بشيق، رأى ارتبাকে عندما شعر بأنها ماتت وكان حتى تلك اللحظة لا يدري ماذا يفعل بهذا الجسد الذي عشقه؟، كل هذه الأحداث عاشها من جديد كأنها الآن تحدث له، كان المنوم أخذ في التأثير على وعيه فتوجه إلى السرير وألقى بجسده وفقد الوعي ليومين كاملين دون

حركة استرجع خلالها كل شيء حدث له منذ ميلاده، كان ذلك بفضل هذا العقار المخدر الذي صنعه خصيصا في المختبرات بشكل سري لنفسه حتى يمكنه النوم والراحة وقتما يشاء بشرط أن يعمل عقله بالطاقة القصوى.

في وسط غابة من الأحداث المتتالية والأفكار المركبة التي تشكلت في عقله ضمن نطاق حلم طويل لا نهاية له ولا بداية كدوامات عميقة على سطح نهر عنيف وجد الطريقة التي سيعاقب بها أبو النصر والرشيد والرئيس دفعة واحدة.

استيقظ أبو النواس هادئا صافي الذهن كأنه عاد بالزمن عشر سنوات إلى الوراء، خرج من غرفته قبل رأس بهيرة، علمت بحسها الأنثوي الشرس أنه عاد إلى طبيعته الأولى فبدأت في إعداد طعام الفطور بينما عاد هو إلى غرفته لأخذ حمام بارد وارتداء ملابسه أعقبه بتناول الفطور وفنجان قهوة وكان في الأثناء قد اتصل بسائقه الذي جاء على عجل.

هبط أبو النواس درجات السلم إلى السيارة السوداء الفارحة المنتظرة يخرج منها دخان أبيض كضباب خفيف، وكلما نقل قدمه درجة إلى الأسفل إلتمح جزء جديد لخطته الخاصة بالفتك بأعدائه بما سبقه، خطواته الحذرة الرشيقة لا تترك أثرا على الدرج كخطوات أسد خبير عرك حياة الغابة، عرف كيف يصطاد وقتما يريد.

ركب السيارة وأخرج هاتفه المحمول واتصل بنائبه أبو النصر وقال وهو يتابع الشارع من خلف زجاج السيارة المغلق:

— صباح الخير يا أبو النصر، أنا في طريقي إلى المختبرات أريد الجميع في غرفة الاجتماعات ومع كل واحد منهم خطته لتحويل الحمير إلى دجاج.

علم أبو النصر أن رئيسه في مزاج معتدل وكانت كلمة السر لبدء تنفيذ الخطة فوضع السم في عصير الليمون الذي اعتاد أبو النواس تناوله بعد الانتهاء من الاجتماع ليبدأ بعدها يوم عمل وربما أيام عمل طويلة في المختبرات.

دخل أبو النواس إلى غرفة الاجتماعات وجد الجميع في انتظاره، ألقى التحية كعادته عندما يكون هادئ، استمع إلى كل الآراء وعلق بهدوء عليها جميعاً ثم توجه إلى مكتبه ليجد عصير الليمون في انتظاره تناول الكوب بيده وروى به عطش شجيرة زينة صغيرة وضعت في إناء من الفخار الملون قريباً من مكتبه، ثم اتصل على أبو النصر والرشيد ليحضرا، وجلس يشرح لهما خطته لتطوير عمل المختبرات للعشرين عاماً المقبلة وفجأة بدأ يتظاهر بوجود خطب ما وكان واقفاً ينظر عبر نافذة المكتب إلى الحديقة التي تحيط بالمختبرات وسقط مغشياً عليه، نظر أبو النصر إلى الرشيد وهو يقول دون وعي:

— مات الكلب

فأجابه الرشيد:

— وغد قذر، سرق جهدنا لسنوات.

لم يلحظا أن هاتف أبو النواس على المكتب وأنه قد اتصل بأحد ما يسمع الآن ما قالاه، كما لم يلحظا أن كاميرات المراقبة زاد عددها ولا أن عدد ميكروفونات التجسس زادت في المكتب، وأن كل ما قالاه سمعه وراه كل فرد في المختبرات حتى بشر التجارب.

جاء أفراد الأمن على الفور ومعهم الأصفاد ووضعوها في أيدي أبي النصر والرشيد واقتادوهما إلى قفص حديدي في المختبرات مخصص للتجارب، تبعهم أبو النواس وهو ينادي على عدد من الفنيين والتقنيين العاملين في المختبرات وهو يقول بصوت عال "أريد كميات كبيرة من زيت بذرة الكتان وقماش قطن رقيق وأوراق جافة وقطن جاف وتابوتين بهما فتحات صغيرة للتهوية الآن".

لم تمر سوى ثلاث ساعات وكان كل ما طلبه أبو النواس جاهزاً، أمر الحراس في هدوء بأن يقتادوا أبي النصر إلى المشرحة الذي بدأ في الصراخ لدى سماعه ذلك وعندها وضعوا على فمه شريط لاصق ليصبح الصراخ مكبوتاً، جردوه من ملابسه وثبتوه على منضدة التشريح ليقوم أبو النواس بدهن كامل جسد أبي النصر بزيت بذرة الكتان وبكميات كبيرة ثم لف الجسد اللامع في القماش وحمل ليوضع

في تابوت وضع به كميات من الأوراق والقطن الجاف حول الجسد الذي لم يكف عن الحركة والأنين، ثم صب أبو النواس كمية كبيرة من زيت بذرة الكتان عليه وأغلق التابوت، فعل الشيء ذاته في جسد الرشيد.

أمر أبو النواس الحراس أن يضعوا التابوتين في وسط المختبرات في مكان يراه الجميع وألا يمس أحد التابوتين مهما حدث، ثم صعد إلى مكتبه يراقب التابوتين من نافذته العلوية، لم تمض سوى ساعتين حتى بدأ الدخان يتصاعد من التابوتين، وكان لا يعرف أحد تحديداً مصدره ثم زادت كثافة الدخان وزادت معها وتيرة الصراخ المكبوت حدة كلما زاد انبعاث الدخان وفجأة ظهرت ألسنة لهب تطل من جسد التابوتين والصراخ يزداد عنفاً وحدة حتى اشتعلا بشكل كامل والجميع في حال ذهول ولا أحد يجروء على فعل أي شيء حتى توقف الصراخ لتتم النار إلتهاام وليمتها، تهشم خشب التابوتين أمام نهم النار في الأكل، وكانت رائحة اللحم المشوي تملأ جو المكان، استمرت النار لساعات حتى أنهت ما بدأتها فأمر أبو النواس بحفر قبر لكل واحد منهما في الحديقة وأن يكتب على شاهد كل منهما:

"هذا ثمن عليك دفعه عندما تخون أبي النواس".

اعتقد الجميع أن السماء غضبت لأجل أبو النواس الذي أراد دفن
الخونة أحياء الا أن السماء أثبتت الا أن تحرقهما، في الحساوي
الأخبار أسرع من الصوت، علم الرئيس الخبر فاتصل على أبي
النواس يواسيه فتأكد من كلماتالعجوز الماكر أنه لا يعلم شيئاً عن دوره
في الخطة فهذا خفقان قلبه وتبدد شعور مزعج راوغه لدقائق بأنه
سيلقى نفس مصير أبو النصر والرشيد.

[٧]

ذكي منهمك الآن في إيجاد طريقة للتحكم في سهم الزمن تمكنه من امتطاء ظهر هذا السهم المحير، هو يصر على ركوب الظهر الذي لم يركبه أحد من قبل مهما كلفه الأمر.

كتب في مذكراته التي تعتبر مدونة المختبر الرئيسية وتاريخه المكتوب:

"الزمن يسير من المستقبل إلى الحاضر ثم إلى الماضي، أما الكون بمجراته ونجومه فيأتي من الماضي إلى الحاضر في اتجاه المستقبل".

انتبه ذكي لما كتبه وكأنه أفاق على صدمة، توقف للحظات ينظر بلا عيون إلى تلك الكلمات العجيبة التي سطرها للتو، ثم بدأ في كتابة نتيجة جاء فيها:

"هذا الأمر لا معنى له سوى أن الصدام قائم بين الكون والزمن في لحظة الحاضر التي دائماً ما تصير ماض ثم تتجمد إلى الأبد، كل ما قيل وكتب، كل حرب دارت غمارها ومن انتصر فيها ومن تجرع هزيمتها كله محفوظ في جليد الماضي".

وأعقب ذلك كله بسؤال عريض:

"لكن لماذا نقف جميعاً في لحظة الحاضر دون تحرك؟"

توقف ذكي عن الكتابة وبدأ في التفكير في استخلاص علمي لم ينتبه له سوى عندما تخيل سهم الزمن الذي يأتي من المستقبل والكون الذي يأتي من الماضي وحدد نقطة للتصادم في الحاضر ووضع الجميع في نفق الزمان وترك النموذج يعمل في خلايا عقله الالكتروني الكبير وبعد لحظات من الصمت والمتابعة بدأ يكتب:

"التصادم عند ضبط كل متغيراته بدقة وتقنين قوة وسرعة كل شيء يمكن أن يتسبب في حالة الثبات التي تحدث فعلياً ولا مبرر لها إلا تساوي قوة الزمن مع قوة الكون مع وجود قوة دفع ذاتية في كلا الطرفين ليبقى الجميع في الحاضر".

ما كتبه ذكي للتو يؤكد فهمه لشيء أعماق منا جميعاً، هو يعلم جيداً أن اللحظة التي يركب فيها ظهر سهم الزمن الذي يجرف كل شيء أمامه إلى المستقبل يموت الزمن ببساطة لأن الراكب سيكون هو والزمن شيء واحد يأتي من المستقبل، هذه الحقيقة المدهشة لم تتمكن من كبح الجراح الفكري لذكي كونه يهتم أكثر من ذلك بإيجاد طريقة تمكنه من النزول عن ظهر هذا السهم من جديد ليكون في الحاضر كباقي الأشياء ولو لفترات قصيرة يختارها هو لإتمام بحثه ولكن هذا الأمر يحيره كثيراً، وطالما وبخ نفسه بالسؤال المتكرر:

— " لقد أنجزت الفرض الأول وقتلت الزمن، فلماذا أفشل في كل مرة أريد فيها إحيائه من جديد؟!، العلم يقول أن الأمر على نفس القدر من الجدة والاحتمال، من استطاع أن يحقق أحدهما حقق الآخر ولكن بعكس اتجاه السرعة في المعادلة، لكنني في كل مرة أحاول فيها انعاش

قلب الزمن ليعود من جديد إلى الحياة أفضل، قاعدة أينشتين تقول أن الفرق بين المستقبل والحاضر والماضي مجرد "وهم"، ودليله في ذلك أن نهر الزمن متجمد وكل لحظة تموضعت في نقطة من المكان، وأستنتج أنا من ذلك أن حركتنا تحرك الزمن معنا، ولكن عندما أختبر هذا الفرض النظري أجدي عاجزا عن اثباته بشكل يمكنني من فعل ما أريده، فلماذا يظل الجميع عاجزون بما فيهم أنا إلا عن فهم اللحظة الحاضرة فقط عند التقاء الزمان والمكان؟!، لقد أثبت أن الزمن مجرد وهم وها هو قد تلاشى بالنسبة لي ولكن ما السبيل إلى اعادته؟! . جميع أبحاثي تشير إلى أن البشر يشعرون عند القيام بالعديد من الأشياء أو المرور بالعديد من المواقف أنهم قد قاموا أو مروا بذلك من قبل، على الرغم من يقينهم أنها المرة الأولى التي يقومون بتلك الأشياء أو يمرون بتلك المواقف وهذا دليل آخر على وهم الزمن، وصعوبة إثبات اللحظة الراهنة دليل آخر أشد وضوحاً.

استمر ذكي في جدال نفسه بسيل من الأسئلة التي لا يستطيع أحد الإجابة عنها سواء في هذه اللحظة الغائمة التي تحتل كل شيء في عقل الكوني صمم لتكون كل خياراته واضحة، قائلاً:

"المهندسون نجحوا في إنشاء أنفاق تربط الأماكن ببعضها عبر الأرض اختصرت الزمان والمكان، ومكنت الناس من تخطي حاجز المكان، كان ذلك في الماضي شيئاً من الخيال، فلماذا أعجز أنا عن صنع مثل هذه الانفاق بين محطات الزمن الثلاث المستقبل الحاضر الماضي؟!، أنا مهتم حقاً بأن أقابل نفسي وأقابل دكتور رشيد وفريقه وأرى ما كان في الماضي لأستطيع مقارنته بما أنجزته الآن لأخرج

باستنتاجات أعمق عن كل شيء. الماضي منظم بشكل صارم لا يمكن تغييره فكل نقطة في المكان ارتبطت للأبد بلحظة من الزمن وتجمدت وهذا ما أريد أن أراه وأدرسه جيداً، فانا في المستقبل الآن ولكني عاجز عن فهم ما يجري بصورة دقيقة لأنني مجبر على الحركة إلى الأمام باستمرار، والحركة فقط دون توقف على الرغم من موت الزمن، الكون من حولي يدفعني نحو الفناء".

ذكي كتب في مذكراته عن المستقبل عبارة شديدة الغرابة قال فيها
بغير بلسان:

" المستقبل فوضى كبيرة لا حد لها"

وأعقبها باستنتاج أشد غرابة:

"لا أستطيع فهم لماذا كلما مررنا من الحاضر إلى المستقبل أصبح كل شيء منظم بصرامة شديدة في الماضي مع أننا جميعاً لم نقصد ذلك إطلاقاً؟!"

ثم أغلق ذلك كله بسؤال محير:

" كيف تتحول الفوضى العارمة إلى نظام صارم في لحظة واحدة؟".

توقف ذكي لبضع ثوان عن الكتابة في مذكراته وأمر كل خلية عصبية فيه أن تتوقف عن النشاط أيضاً فأصاب كل شيء في المختبر حالة من الارتباك اهتز لها المكان وتوقف كل شيء عن العمل شعر بذلك أيمن فصاح بصوت عال "ماذا يحدث يا صول عبد العال؟"،

ورأي شريف ذلك فارتجفت أوصاله وانقبض قلبه فهو لم يألف الظلمة منذ رأى النور للمرة الأولى في حياته، بعد مرور الثواني التي حددها ذكي أمر كل شيء إلى العودة لما كان عليه سابقا من النشاط.

وبدأ يكتب في مذكراته من جديد:

"التوقف الذي قمت به إراديا أحدث شيئا ما في الزمن لا أفهمه فأصبح أكثر راتبة شعرت به مع أنني متأكد من موته، فهل الموت هو السبب في العودة بسهم الزمن إلى الماضي؟، أم أنه فقط يثبتني في الحاضر، أي في اللحظة الأخيرة دائماً؟!".

ثم كتب عبارة بخط عريض داخل مربع بلون أحمر فاقع ليميزه عن باقي ما كتبه جاء فيها:

" لا معنى للزمن في الخلود"

وتوقف عن الكتابة ولكنه بدأ في بحث عميق في مخزن معلوماته عن قصة بداية الخلق ونظرية الانفجار الكبير الذي أحدث الكون، وبدأ يقرأ بلا عين ولا لسان كل ما كتب عن هذه اللحظة وما تلاها وما قبلها بالتزامن في لحظة واحدة علوم الفيزياء والرياضيات والفلك والأديان حتى توقف فجأة وشعر أنه ارتعد قليلا على الرغم من أنه بلا روح ولا يملك ما يملكه البشر من مشاعر هو في النهاية مجرد آلة تفكر وتبحث فقط بلا حواس.

وعاد إلى الكتابة من جديد بشكل غريب لم يعهده وقال بلا لسان:

"لا أحد يعلم من علماء الفيزياء والرياضيات والفلك ما الذي سبق الانفجار الكبير ولا ما سيعقبه ولكنهم أثبتوا كل شيء عن الانفجار منذ اللحظة صفر قبل ثلاثة عشر مليار سنة خلت إلى الآن، هذا جميل. أما في علوم الأديان تجد نظريات كثيرة أبرزها ما يقول أن الخلود سبق الانفجار الكبير وأن الخلود سيعقب حتماً فناء الكون، وهناك من يؤكد أن الخلود يحيط بنا من كل جانب".

ثم عاد ذكي لتدوين العبارات الغريبة التي يطلق عليها هو استنتاجات علمية هامة يُضمن بعضها في رسالاته إلى صانعه الدكتور رشيد ويخفي بعضها لنفسه ليضيف بعض الخصوصية والتميز على ذاته المجهولة إلى اليوم، جاء في عبارته المدونة بغير قلم ولا يد:

" الكون جاء من العدم وهو يعيش لحظات الفناء الآن "

وعلى خلاف نهجه في الكتابة بدأ يفسر العبارة لأنه يحاول على ما يبدو فهمها جيداً لتكون منطلقاً لشيء هو يبحث عنه فيها فكتب بخط أصغر قليلاً من الخط الذي دون به العبارة:

"إذا كان الكون منذ لحظة الانفجار الكبير بين خلودين كما يظهر لي من المخطوطات فإن المنطق يقول أننا الآن نعيش فترة الفناء الحقيقي وليس العكس كما يزعم علماء الفيزياء والفلك والرياضيات، والمنطق يقول أيضاً أن الخلود واحد وليس اثنان، فهناك سبب أجهله إلى الآن جعل كل شيء ينطلق في هذه الرحلة من العدم في خط

دائري محكم من نقطة الخلود التي كانت خلفنا في الماضي والآن نحن نسير عبر الفناء إليها بعدما تحولت إلى المستقبل، هذا يفسر أمرين لي الأول لماذا نحن نعجز عن الاتيان بدليل على اللحظة التي نعيشها الآن؟، والثاني فهو سعي كل شيء إلى الفوضى والنهاية بسرعة مذهلة، ولكني ما زلت لا أفهم النظام الصارم الذي فرض على الأشياء في الماضي".

ثم عاد لتدوين عباراته الغامضة بالخط العريض:

"لا يمكننا فهم الخلود ولا حتى الاقتراب من تفاصيله لأنه يوجد في نقطة اللازمان واللامكان".

وبدأ في تفسير العبارة الغامضة التي لا يمكن فهمها من قبل رشيد وفريقه الذين كما يتصور هو الآن أنهم خلفه في الماضي بما يزيد عن خمسمائة عام أو أكثر:

"استرجاع الاشياء في الماضي مرهون بوجودها في نقطة ما من الزمكان وهي متجمدة ثابتة منظمة بقوة، ولكن الخلود حدث ويحدث خارج الزمن الذي يحتوي الزمان والمكان ولا يمكننا استرجاعه أو التنبؤ به على حد سواء، الأمر الآن يشكل لدي تحدي، فمن الآن وصاعدا سيكون ضمن اهتماماتي الإجابة عن سؤال يستفز مشاعري للغاية هو: ما هو الخلود؟".

كان ذكي مستغرقا في تفكيره والحديث إلى نفسه والتدوين المستمر لكل شيء بينما شريف يكتفى بتلقي الاشارات والنظر إلى ما حوله من خلال صندوقه الزجاجي السميك، في حين انشغل أيمن بفكرة جاءت عبر الشبكة الكهرومغناطيسية حول ميلاد الموسيقى، فزاد من حركته الدائرية المستمرة حول ذاته وأغمض عيناه الميتة وأرهف سمعه لتلقي نغمات مرتبة مهذبة يعزفها كل شيء في الكون دون توقف، تعجب من سماعه لهذه النغمات الكونية التي لم يحاول الانصات لها من قبل على الرغم من وجودها في كل شيء تبدأ داخله وتنتهي في عميق الكون القديم المظلم وبالعكس، نغمات صوته ونبضات قلبه وسريان الدم في عروقه، ووقع قدميه على الأرض في أنات شريف المكبوتة في حركة الصول عبد العال في أصوات الانفجارات وحركة المجرات وتسارع ذرات الكون نحو الفناء، كل شيء يعزف في هذه المقطوعة الدقيقة دون نشاز. بدأ في الحديث إلى نفسه منذ فترة طويلة عن الأمر ولكنه نادى بأعلى صوته الآن على ذكي ليسمعه فأجابه بصوت الصول عبد العال مغنفاً:

— اصمت يا مسجون، لقد قاربت على الإصابة بالجنون من حديثك المستمر.

فيجيب أيمن الصول بعنف:

— بل اصمت أنت واسمعني يا عبد العال.

ويرد قائلًا دون أن يعطي فرصة لذكي للرد:

— الموسيقى صوت الكون.

فصاح الصول عبد العال:

— الموسيقى حرام يا كافر.

فارتعد أيمن مما سمعه بشدة، فهي المرة الأولى التي يلقيه أحدهم
بصفة كهذه، فقط لأنه يقول ما يفكر فيه، حاول الفهم عن طريق
الحديث والنقاش، زاد من سرعته في الدوران وصرخ قائلًا:

— الموسيقى ليست حراما، وأنا لست بكافر يا عبد العال. كيف لك
أن تحرم ما لا يمكن إيقافه أبدا وليس لي دخل في سماعه. ما دخل
الايمان والكفر في الأمر من الأساس؟، أليس الايمان أحد أشكال سطوة
الروح وقوتها ودليل على ضعف النفس واستكانتها؟، ولكنهما لا
تستطيعان إيقاف الموسيقى ولا عدم سماعها، خلاصة القول أنت جاهل
يا عبد العال.

[٨]

طفح كيل أبو النواس فما يراه ويسمعه طيلة الوقت ممن حوله يزيد من غضبه، هو يرى أن الرئيس فقد عقله ويتآمر على الشخص الذي يسعى إلى ابقائه أطول مدة في السلطة ويتعاون مع أعضاء من فريق المختبرات لقتله، أما التغيرات التي يلاحظها على بشر التجارب كانت ومازالت أكثر ما يقلقه فالرئيس يمكن أن يذهب ويأتي هو بغيره في أي وقت شاء ولكن بشر التجارب تم تجهيزهم للقيام بدورهم على مدى عشرات السنين ولا يمكنه بين ليلة وضحاها إيجاد جديد جيل منهم.

كان دائماً ما ينتابه شعور غريب عن عدم قدرته هذه المرة على اتمام تحويل الحمير إلى دجاج في الموعد المحدد لذلك ولكنه كان يكبت هذا الشعور بقوة، يحاول أن يثبت لهذه الأفكار أنه قادر على فعل أي شيء طالما يريد هو ذلك.

كان يقلب صفحات جريدة يومية اختارها بلامبالاة من كومة الصحف التي توضع على مكتبه كل صباح عله يجد خبراً مسلياً يزيل عنه ما يطلق عليه المشاعر السلبية التي تطارده مؤخراً، لكنه بدلاً عن ذلك توقف عند تقرير موسع عن مؤتمر صفحي عقده عالم يدعى الدكتور ماجد الأمير يتحدث فيه عن ظواهر فضائية خارقة تحدث في الحساوي مؤخراً، ما استرعى انتباه أبو النواس للتقرير عنوانه المثير الذي جاء فيه "الحساوي تتعرض لسيل منتظم من الاشارات الفضائية"، وفي المتن جاءت تأكيدات ماجد الأمير على تلقيه اشارات ورسائل من الكائنات الفضائية بانتظام، لكنه على حد قوله مازال يحاول فهم ما تحويه من معلومات ربما يكون لها علاقة بالمستقبل أو ما شابه.

لا أحد من المحيطين بأبي النواس ينكر علاقته السيئة بالفيزياء الفلكية، وهذه العلاقة ساءت منذ صغره عندما كان والده يريد منه ان يكون مثل اينشتين وكان دائماً ما يتلقى تعنيفاً شديداً وكثيراً ما ضربه والده عندما يضطر إلى الافصاح عن كرهه لهذا الرجل الذي كان ينعته دائماً بـ"الأخرق" الذي يهتم بالمستقبل والسفر عبر الزمن ويترك كل شيء يجري في العالم من حوله للبحث عن سراب.

هذه العلاقة المضطربة مع الفيزياء والفلك لم تمنعه من قراءة التقرير، بل وذهبت به حدا بعيداً عندما استدعى عزام أبو العزائم خبير الفيزياء في المختبرات -الذي حضر على الفور- وراح يسأله باهتمام شديد عن الكائنات الفضائية وعن ماجد الأمير الذي يدعي تلقيه إشارات ورسائل من الفضاء الخارجي، في الواقع أبو النواس لا يأبه البتة بالفضاء ولا بالأمر ولكنه يحاول أن يجد رابطاً بين ما يقوله هذا الرجل الذي أطل برأسه فجأة من سطور الصحيفة كالعفريت ليلبي له طلباً كان يتمناه، وبين ما يحدث من حوله من أمور غريبة لا يجد بينها رابطاً ظاهرياً يمكنه من فهمها.

كانت إجابات أبو العزائم الذي يعيش حالة من الفرح منذ تولى منصب نائب رئيس المختبرات خلفاً لأبي النصر ومتخطياً عقبة الرشيد في الوقت ذاته، غير مقنعة لأنه يعلم جيداً ما يكنه أبو النواس في قلبه لهذا العلم بالذات من كره انعكس حتى على تعامله مع أبي العزائم نفسه، قبل أن يضطر إلى وضعه في منصبه الجديد لخلوه فقط، ولكنه يغطي كل ذلك بابتسامة واسعة لكي يفلت من مراقبة أبو النواس له بدقة طويلة الوقت.

لكنه قال وعلامات العجب بادية على قسّمات وجهه:

— ماجد رجل غريب الأطوار، اعتزل المجتمع والناس منذ سنوات طويلة، وأعتقد أن ما يقوله هلوسة، ولكني لا أنفي وجود الكائنات الفضائية ولا امكانية وجود حياة في الفضاء الخارجي

فقاطعه أبو النّواس بحدة:

— لم أسألك لكي أسمع محاضرة في الفيزياء، سألتك هل تعرف هذا الرجل؟

فأجابه بوضوح لا يخلو من الرّيبة والانزعاج، لأنه يخاف كثيراً أن يغدر به أبو النّواس ويأتي بشخص آخر يحل محله وينتهي به المطاف خارج المختبرات:

— نعم، ولكن ماذا تريد من رجل أخرج كهذا؟، أنا أستطيع أن أقوم بكل ما تريده.

فهم أبو النّواس ما يرمي إليه أبو العزائم وفسر لماذا تغيير لون وجهه وبدأ فكه الأسفل يتحرك لإراديا حركة لا تخلو من التشنج تظهر عندما يضطر إلى القيام بما لا يريده، فطمأنه أنه يحتاج ماجد هذا لأمر بعيد عن العمل داخل المختبرات وعليه أن يرتب له لقاء مع هذا الرجل الأخرق الآن، وأن هذا كل شيء.

من تحت أقدامهم بالضبط استمر ذكي طيلة أربعين عاماً خلت في إرسال تقاريره اليومية إلى صانعه الدكتور رشيد الذي لم يتلقاها قط، لأنه انتقل إلى مسار آخر بموته، الرسائل والتقارير في الواقع لا تعدو عن كونها طاقة كهرومغناطيسية وهي لا تتبدد، تظل باقية يمكنها أن تتحول مع الزمن ولكنها تحمل نفس الصفات الوراثية للطاقة التي خلق منها الكون ذات لحظة ما في اللامكان واللازمان. كان التدهور الذي أصاب كل شيء في الحساوي ويعده أبو النواس تقدماً ماضٍ في طريقه حتى النهاية يحرق كل شيء له علاقة بالماضي الزاهر الذي عاشته تلك البلاد ذات يوم. كل شيء أصابه الجنون ما يجعله يحرق نفسه بنفسه، ولكن النار دائماً تترك بقايا في ترابها الأسود من وقودها الأول كان من ضمن هذه البقايا عجوز هرم يدعى ماجد الأمير تعلم مع رشيد وبقي على حاله يحاول فقط فهم ما يجري من حوله ولذلك السبب نعتة الجميع بالأخرق وكثيراً ما أطلقوا عليه لقب "العجوز الفضائي". كان الرجل يقيم في معمله وتزوج أبحاثه، عاش حياة ناسك في محراب علم مهجور طور عدداً من التقنيات البسيطة تمكنه كما يعتقد من التواصل مع العالم الخارجي كما كان يظن!، كان يحلم بالتحدث ذات يوم مع العوالم الأخرى والكائنات الفضائية أصبحت شغله الشاغل منذ التقط قبل عدة سنوات بعضاً من الرسائل الأولى التي أرسلها ذكي لصانعه، تكتب بلغة حاسوبية كان رشيد طورها في سرية تامة لتكون الرابط بينه وبين مختبره لا يفهمها أحد في العالم سواهما. اللغة حيرت "العجوز الفضائي" وهو يعمل بجهد على فك طلاسمها العسية ولكن كل محاولاته باءت بالفشل إلى الآن. كانت الرسائل لا تحمل الكثير من المعلومات ولكنها ركزت على تطور عمل دماغ كل من أيمن وشريف اللذين كانا يرمز لهما في الرسائل بـ

"أي" و "شر"، لم يفلح "العجوز الفضائي" سوى في ترجمة هذه الاختصارات إلى عبارة "أي شر" وبنى عليها أساطيره حول الشرور التي ستحل بالحصاوي وأهلها، وبنى من الكلمتين مستقبل يسوده الشر والدمار والفناء والقهر. بالرغم من يقينه من فشله المستمر في فك شفرة اللغة التي كتبت بها الرسائل إلا أنه استمر في الحفاظ على أسطورة "أي شر"، وللحقيقة كان حدثه صائباً فالناس تخاف من المستقبل وترتعد فرائصها اذا كان هناك من يقول أن هذا المجهول يملأه الشر. أبو النواس أمسك بهذا الخيط الرفيع وحاول أن يستثمره في مصلحة ما، وهو أن يقوم بمساعدته في نشر للخوف، معتمداً على فلسفته التي ترى أن السيطرة على القطيع تكون دائماً ببث الخوف من الذئب، وهو يعلم تمام العلم أن ما يأكله الراعي من خرافه أكثر مما يأكله الذئب!!.

لم يكن عمل "العجوز الفضائي" كله فشل فمع تلقيه مزيداً من الرسائل من المصدر عينه وصل إلى استنتاج غريب وبالغ الأهمية في الوقت ذاته، وهو أن الرسائل القادمة من الفضاء تركز على بؤرة في الأرض وكأنها مصباح مسلط من السماء على تلك البؤرة التي تقع في مركز مدينة الحساوي العاصمة وتحديداً في قلب المختبرات الوطنية وهي المعلومة التي لفتت انتباه أبو النواس أكثر من غيرها وبدأ في محاولة لإيجاد الرابط بين الرسائل والتغيرات التي يلحظها في بشر التجارب منذ فترة وربما في سلوك معاونيه والرئيس لأن المختبرات يحيط بها كافة مؤسسات صنع القرار ومنازل الأثرياء، كما تخيلها رشيد قبل عقود، وأصبح الماضي في قلب المستقبل.

إقناع "العجوز الفضائي" بالحضور إلى مكتب أبو النواس لم يكن بالأمر الهين لكنه وافق فقط ليلقى نظرة على المختبرات من الداخل فمن يدري ربما يجد السبب الذي دفع الكائنات الفضائية لاختيار المختبرات لتكون بؤرة انعكاس لشعاع رسائلهم في الأرض؟.

عندما دخل ماجد إلى المختبرات للمرة الأولى في عمره بدأ في تفحص كل شيء باهتمام بالغ، ينظر إلى كل شيء وكأنه فعلاً كائن فضائي نزل الأرض لتوه في رحلة استكشاف علمي، هو ينظر إلى كل ما يقوم به البشر على أنه عبث لا يعدو عن كونه سخافة زمنية متقلبة فانية، سمع صوت أجش يناديه من نافذة بالطابق الأول ويأمره بحدّة أن يستقل المصعد إلى حيث يقف بأسرع ما يمكن وأن يدعه مما يشغله الآن. استجاب على مضض وصعد ليجد كبير العلماء في انتظاره يمد يده في برود عجيب، فبادلته الفضائي البرود بمثله وسار خلفه إلى المكتب دون أن يقول أي شيء. أشار أبو النواس له بالجلوس فجلس وهو يقلب عينيه في المكتب وزخارفه وأثاثه الذي يظهر عليه الأبهة والفخامة بوجه يعلوه كمية كبيرة من القرف مما يرى.

بدأ أبو النواس حديثه فيما بقي "العجوز الفضائي" في استطلاع لهذا العالم الذي تطغى عليه الزخرفة الخارجية واللمعان المبهر، مع أنه يعكس الظلمة من داخله، انتابه شعور بعدم الارتياح منذ دخوله المختبرات ولا يعلم سبباً لذلك، تراءت له خيالات لم يعهدها وكأنها أحلام مبعثرة هائمة في جو المكان كأرواح معذبة تحتاج إلى من

يخلصها من عذابات البعد عن الأبدية، شعر أن رأسه فجأة تضج بالكثير من الأفكار القديمة وبنفس الطريقة نشب صراع بين القديم والمعاصر في رأس هذا الرجل الغريب، سيل عارم من المعلومات يتصارع ليدخل إلى عقله وسيل مماثل يصارع ليخرج منها، هذه الحالة زادت من تشنته وعدم انتباهه إلى ما يقوله أبي النواس الذي ظن أن "العجوز الفضائي" يستمع إليه بانتباه، لكنه سرعان ما فهم أنه على خطأ بعدما أنهى كلماته وظل ينتظر الرد الذي لم يجيء، فصرخ أبو النواس في غضب منادياً أبو العزائم الذي انتفض من مقعده وجاء مهرولاً إليه، بينما "العجوز الفضائي" يغوص في حالة من التوتر وتشنت الأفكار وكأنه فقد سمعه وربما بصره.

وقف أبو العزائم كتلميذ يخشى العقاب أمام أبي النواس الذي صرخ:

— من هذا الرجل؟

فأجابه في خوف:

— هذا ماجد الأمير الذي طلبت مني إحضاره.

فعلق أبو النواس في غضب تزداد حدته بمرور الوقت:

— لم أكن أظن أنه أخرج إلى هذا الحد، حاول أن تتواصل معه لأستطيع الحديث معه، يجب أن يركز في كلامي وإلا وضعته مع بشر التجارب لبعض الوقت ليعود إليه رشده.

فقال أبو العزائم موجهها حديثه لـ "العجوز الفضائي":

— دكتور ماجد، أرجوك لا تضعنا جميعاً في مأزق نحن في غنى عنه فنظر إليه "العجوز الفضائي" في هدوء وتفحص وجهه بعناية قبل أن يقول له:

— هذا المكان يتلقى إرسالاً مستمراً من الفضاء.

هنا صاح أبو النواس:

— أي إرسال؟

فنظر إليه "العجوز الفضائي" وسأله:

— لماذا ترفع صوتك، ألسنت عالماً؟!

تتنحى أبو النواس وكأن كلمات "العجوز الفضائي" أخرجته أمام أبي العزائم وحاول تخطي الأمر سريعاً، فقال له بصوت خفيض:

— يا دكتور ماجد، ركز في حديثي لأنني لا أملك الصبر كما لا أملك الوقت.

فهز "العجوز الفضائي" رأسه بحركة تتم عن عدم اهتمام بما يقوله أبي النواس دون أن يتحدث فأردف أبو النواس قائلاً:

— أنت للتو قلت أن المختبرات تستقبل إرسالاً مستمراً من الفضاء أليس كذلك؟.

فأجابه:

— نعم قلت ذلك للتو وأنت سمعته.

فسأله أبو النواس:

— هل من ايضاحات أكثر حول ذلك الأمر؟

في هدوء أنزل "العجوز الفضائي" الغليون- الذي يظن من يراه للمرة الأولى انه ولد به- من فمه وأبقاه في يده بعدما قام بإشعال عود ثقاب ودنا برأسه المشتعل للتو من حفرة الغليون بينما يسحب نفساً عميقاً منه ثم بدأ في إخراج الدخان على دفعات متقطعة، هذا الهدوء وسحابة الدخان التي تخرج من فمه زادت من غضب أبي النواس فهو يكره رائحة الدخان بشدة، لكنه ابتلع كلماته وصمت على مضض.

فقال "العجوز الفضائي" وهو يخرج ما تبقى من دخان في صدره وهو يبدو لمن ينظر إليه وكأن الكلمات خرجت لتوها ساخنة من فرن بعد طهوها جيداً:

— لقد أثبت ذلك من خلال أبحاثي، لكنني الآن تأكدت أن استنتاجاتي العلمية سليمة مائة في المائة، هذا المكان بؤرة الإرسال الفضائي، ولو ركبنا أجهزة الاستقبال هنا سيتم التقاط أكبر قدر من الرسائل الفضائية، وربما ساهم ذلك في فك شفرتها.

فسأله أبو النواس في حلق بالغ:

— هل من طريقة لإيقاف هذا الهراء، وتحويل الإرسال إلى مكان آخر غير المختبرات؟

فأجابه في هدوء شديد بعدما سحب نفساً عميقاً آخر من الغليون قبل أن تخدم ناره، وبدأ في إخراج كلماته المدخنة قائلاً:

— كيف يمكنك أن تتحكم في مصدر ربما يوجد خارج مجرة درب التبانة التي نعيش فيها أي هراء هذا الذي تقول لقد حسبتك عالماً، ربما تكون المسافة بيننا وبين مصدر الرسائل آلاف السنين الضوئية، هذا يعني أن ما تطلبه قطعاً مستحيل.

حك أبو النواس ذقنه وهو يحاول استيعاب كل ما يدور من حوله بدايةً من وجود رجل يصفه بالأخرق يقول كلمات غير مفهومة بالنسبة له على الأقل، وصولاً إلى الإرسال الفضائي الذي بلي به دون سابق إنذار ولا حيلة لديه سوى أن يظل في تلقيه كما يقول هذا الرجل، ثم علق بصره على وجه "العجوز الفضائي" الذي تكسوه لحية بيضاء كثة وشعر أبيض خصلاته متنافرة كبحر هاج، وعاد ليسأل نفسه: "لماذا أجلس أمام هذه الأخرق وما الذي يرغمني على سماع كلامه؟!".

ثم بدأ في فرك عينيه بشدة ليتحقق من أن ما يعيشه الآن حقيقة وليس حلم بشع فانقلب جفن عينه اليمنى إلى الخارج من شدة الضغط عليه فسبب له بعض الألم مما زاد من توتره، فوضع وجهه بين راحتي يديه وبدأ في العبث بإصبعيه الوسطى في شحمتي أذنه والحيرة

تملأ كل عقله، ثم عاود النظر إلى وجه "العجوز الفضائي" الذي لا يكثرث لأي شيء من حوله يجلس في هدوء ويخرج علبه الثقاب من جيبه ويخرج منها عودا ويحك رأسه بسنفرة العلبة فيشتعل العود ثم يدنيه من حفرة الغليون التي ملأها للتو بالدخان ليشتعل مع مرور الهواء فيه من جديد ليسحب هو بدوره منه نفساً عميقاً جديداً يخرج دخانه في نفس الرتابة من فمه وأنفه الدقيق، وأبو النواس يشاهد ذلك كأنه فيلماً كلاسيكياً قديماً ومملاً للغاية.

قطع أبو النواس هذا المشهد الصامت بهدوء على غير عادته قائلاً بعدما وقف خلف مكتبه ومد يده لمصافحة "العجوز الفضائي" الذي مازال يجلس على الأريكة المريحة المقابلة له:

— سأفكر في أمر إنشاء مختبر لتلقي الإرسال الفضائي، وعندما أقرر سأبعث في طلبك.

كان "العجوز الفضائي" قد وقف في هدوء ووضع يده الباردة كأجساد الموتى في يد أبو النواس التي تشع بالحرارة ليصافحه، وعلق بقوله قبل أن يسير باتجاه الباب في هدوء ويخرج منه:

— أنت على ما يبدو مريض يا كبير العلماء، يدك كالجحيم، أنصحك بأن تراجع طبيبك.

تنهد أبو النواس بشدة وقال بعد أن استدار ناحية النافذة المطلة على الحديقة ليلقي نظرة على قبوري أبو النصر والرشيد:

— على ما يبدو أن الحصاوي أصبحت مرتعاً للمجانين.

اليوم فقط بلغ ذكي أربعين عاماً طبقاً لمقياس الفناء البشري والذي يطلقون عليه العمر البيولوجي، قضاها في عمل متواصل بلا كلل أو ملل على عكس البشر، يجمع البيانات ويصنفها ويوبها ويرسل الرسائل التي لم تصل يوماً لصانعه، ويجري التجارب ويدون النتائج، هو لا يأبه بمثل هذه الشكليات التي تصل حد التقديس والعبادة لدى البشر، هو منذ لحظته الأولى في العالم يعلم تمام العلم أنه جاء ليعمل فقط، ولذا فقد قضى طيلة الأيام الفاتنة في تحليل جميع البيانات التي سجلها منذ بداية عمله قبل أربعة عقود كاملة. هو في هذه اللحظة لا يدري لماذا استمرت التجربة كل هذا الوقت الطويل؟، هو يملك إجابة قديمة لهذا السؤال حصل عليها من الدكتور رشيد مفادها أن عمر التجربة عشر سنوات، واليوم فقط أنهى أربعة أضعاف ما حدده الدكتور رشيد عمراً لتجربته، سأل نفسه مرات عديدة: " لماذا لا يمثل الوقت قيمة لدى معظم البشر؟" ولكن هذا السؤال لا يملك له إجابة على الأقل في الوقت الراهن.

على الرغم من موت الزمن بالنسبة لذكي لكنه يشعر بعد مضي أربعين عاماً أنه أكثر نضجاً عن ذي قبل ولكن دون وجود تغيرات على شكله أو ما يملك من قدرات تشبه الحواس لكنها ليست حواساً بالشكل الذي يعرفه البشر فهو يرى لكنه لا يملك عينيّن ويسمع لكنه لا يملك أذنين وطبقاً لفهم معظم البشر هذا المخلوق الإلكتروني عاجزاً وناقصاً لكن ذكي نفسه لا يفكر في الأمر على هذا النحو بل يرى نفسه أفضل من أن يحتاج لمثل تلك الحواس، هو يعلم أن عمر الأربعين

حاسم عند البشر وفيه سر ما يجعله مكانا زمنيا خصبا لحدوث تحولات اما شديدة الايجابية كأن يختار الإنسان ليكون نبيا أو رسولا، أو شديد السلبية كأن يختار ليقع فريسة لمشكلة منتصف العمر وتداعياتها، وعلى الرغم من أنه أشرف على الانتهاء من فحص جميع البيانات للمرة الرابعة الا أنه لم يجد إجابة واحدة مقنعة عن سؤاله حول أسباب اطالة أمد البحث كما لم يجد إجابة كذلك للسؤال الذي يعمل لحله منذ فترة عن التحكم في سهم الزمن. ذكي لا يعرف ماذا تعني كلمة "يأس"؟ فبرمجته الأولى لا تحمل مثل هذه المعاني كما أنه لا يملك روحا ولا جسدا وبالطبع لا يملك نفساً، هو يرى أن النفس البشرية خلقت في اللحظة التي دخلت فيها الروح إلى مكان ما من الجسد الطيني لتسكنه فحولته إلى جسد من لحم ودم، حول ذلك كتب في مذكراته:

"الروح تخشى على الطين من التحلل وهي بداخله فتتعري، أو ربما تخشى من الاختلاط بالطين فتتسخ، أما الجسد البشري بعد تحوله إلى لحم ودم يبدو من الداخل كمسكن أنيق ونظيف لروح تواقفة إلى الأعلى، الجسد في هذه الحالة يظهر عليه حسن التنظيم يحرسه جهاز أمني يفرض قبضته الحديدية على كل شيء فلا يمكن للأغراب غزوه بسهولة".

منذ سنوات طويلة وذكي يريد أن يعرف كنه هذه الروح التي تستطيع فعل كل ذلك لكنه في كل مرة يواجه بالفشل، لم يحاول معرفة النفس لأن البشر قاموا بالكثير في هذا المجال، ولكنه يأخذ على مساعاهم ذلك أن الاستغراق في دراسة النفس بمفردها يجعل الأمر يبدو

سخيفاً!!، وهو يرى أن من الحصافة النظر إلى الأخطاء التي وقع فيها البشر لتكوين صورة ولو تقريبية عن النفس، لكنه يشعر دائماً عند التفكير في تحول الجسد البشري إلى لحم ودم بفعل الروح وميلاد النفس بدافع غريزي إلى طرح سؤال حول حجم المعاناة والعذاب الذي تتحمله كتلة من النار عندما تسجن في جسد من الماء؟. وعندما يواجه عقله بالسؤال يرد بجواب أكثر غرابة من السؤال:

— ربما لأن الشيطان أصابه التحول كما أصاب البشر!!.

ذكي يمقت طرح الأسئلة التي يعجز عن الإجابة عنها بشكل علمي مقنن ومثبت، لم يجد سوى وضعها جميعاً داخل دائرة باللون الأسود وكتب تحتها: " كيف يمكن للفكرة أن تشكل الحقيقة كما تشكل الواقع ثم يتلاشى كل ذلك مجدداً كدوامات مياه على سطح نهر عظيم، لتبدأ أفكار جديدة وحقائق أخرى".

بدأ بعدها في بث سؤال عبر الشبكة الكهرومغناطيسية إلى دماغ أيمن وشريف بلا صوت ولا كلمات جاء فيه:

— كيف يمكن أن نسافر جميعاً عبر الزمان؟

كان شريف ومازال في رقصته الصوفية المستمرة حول ذاته كأنه يستمد طاقته من الطاقة المظلمة التي تدفع الكون بسرعة هائلة إلى المجهول، أصبح لا يتوقف أبداً عن الحركة والكلام لا يهدأ عن التفكير والبحث، في حين يجلس شريف على كرسيه المتحرك، بلا حركة أبداً يراقب كل شيء من حوله في صمت لا يسمع حتى صوت أنفاسه وخفقات قلبه التي تتسارع كلما بدأ بث الأسئلة والمعلومات عبر الشبكة.

على الفور زاد أيمن من سرعة دورانه وأغمض عيناه الميتة وبدأ
في تفكير عميق لثوان معدودة قال بعدها:

— السفر عبر الزمان هو سفر عبر الروح، ليس له عمر أو مدى،
فقط أحمد نار نفسك قرعا على طبول الابد وستبدأ رحلتك عبرك على
الفور.

اختار ذكي أن يجرب طريقة جديدة اليوم للتواصل مع أيمن
بمناسبة بلوغه سن الأربعين، بأن يظل يبيت أسئلته عبر الشبكة دون أن
يتحدث بصوت عبد العال، بث سؤال جديد:

— كيف القرع على طبول الأبد؟

فأجابه أيمن:

— عندما تختار ايقاعك الملائم، فالسفر على وقع الايقاع صوفي، كل
ما في الكون له ايقاعه الخاص يسافر به عبر الفناء بحثا عن شيء فقده
في بداية الرحلة، الجميع يسافر عبر نفس الطريق لكن الهدف مختلف.

بث ذكي سؤالاً جديداً:

— ولكن كيف تميز بين الأهداف الكثيرة لتصل إلى هدفك ولا
تتعثر؟

فأجاب أيمن:

— الصورة ملهمتي دونما تفاصيل، مجرد صورة بلا صورة ترشدني إلى الطريق.

توقف ذكي عن الأسئلة لفترة ليتمكن من فهم ذلك، فهو وللمرة الأولى يجد من يمس شيء ما بداخله، هو مثل أيمن لا يملك عينان ويرى التفاصيل ولكنه لم يفهم الأمر على النحو الذي لخصه أيمن في مقولاته "صورة بلا صورة"، وكأن الكلمة نكات جرحا في نفسه على الرغم من علمه أنه بلا روح ولا جسد ولا حواس وهو دائم الاعتزاز بذلك كما يعتز بكونه ليس بشريا، ولكن ذكي لا يعلم لماذا انتابه شعور يختلط بالدهشة والحسرة والألم، ربما لأن أيمن استوعب شيئا لم يستوعبه هو، أو ربما لأن شعوره بالزهو كونه أكثر تنظيما وقوة وبقاء تلاشى كالسراب عند سماعه هذه العبارة التي لخص فيها شخص يراه أقل منه كينونته، هو يكتب بلا يد يتحدث بلا لسان يرى بلا عيون يتحرك بلا أقدام.

بدأ أيمن للتو رحلة تأمل عبر ذاته يردد أبياتا حلاجية عتيقة اعتاد ترنيمها عندما يأتيه الشعور يهتز لها اهتزاز الدراويش يحاول أن يمتصها بروحه:

فقلت: من أنت؟ قال أنت

وليس أين بحيث أنت

بنحو "لا أين" فأين أنت

فيعلم الأين أين أنت

رأيت ربي بعين قلبي

فليس للأين منك أين

أنت الذي حزت كل أين

وليس للوهم منك وهم

وكان ذكي يسمعها للمرة الأولى تفاعل معها بلا روح ولا نفس
وأيضاً بلا ذات، بدأ في تدوينها في مذكراته وكتب تحتها بخط أحمر
غليظ مهتز من النشوة:

— العقل البشري ثقب أسود

كان شريف في هدوئه الصاخب يتابع كل شيء حتى ثقل الأمر
عليه وفاض كل شيء بداخله، انفجرت الدماء من كل فتحة في رأسه
بغزارة في محاولة لإعادة التوازن حتى يعود منسوب كل شيء إلى
مستواه وبعدها يتوقف النزيف، عندها توقف ذكي عن البث، وعاد
لمتابعة ما يجري في الحساوي فهو في اتصال مستمر مع ما يحدث
هناك يتابع كل شيء ويسجل كل شيء بدقة متناهية يرى أن البحث
الذي يجريه على شعب الحساوي يخصه هو دون غيره، يريد أن
يسيطر على الحساوي ويسخرها لإنتاج ما يحتاج إليه من بيانات
تمكنه من السفر إلى الماضي والمستقبل بنفس الطريقة، وكعاداته
يطرح على نفسه سؤال كبير ثم يسعى إلى الحصول على الإجابة،
وكان سؤاله:

— ماذا يحدث لو وضعت كل الحقائق الغائبة عن البشر أمامهم فجأة ؟

وبدأ على الفور في بث ما يملك من حقائق غائبة عن الناس في
الحساوي عبر حقله الكهرومغناطيسي الذي أخضع له الجميع، وبعدها
بقي يتابع نتيجة ذلك على سلوكهم. كان يلاحظ أنه كلما زاد من بث

المعلومات والحقائق تعددت الخيارات المطروحة أمام الناس مما زاد من ارتباكهم الشديد.

كتب ذات مرة في مذكراته الخاصة:

"الخلود مجموعة من المشاعر المستقرة التي يتوق البشر إلى تذوقها وهم على استعداد لفعل أي شيء من أجل ذلك، أما الفناء فهو مجموعة من المشاعر الناقصة والمضطربة والمتحركة التي تدفع البشر دائماً إلى الحركة المستمرة لسد حاجة هذه المشاعر إلى الاستقرار وفي هذه الرحلة يضحى كل إنسان بكل شيء في سبيل ذلك، والواقع أنهم لم يفلحوا في كلتا الحالتين والا توقف سهم الزمن على الفور".

ذكي يتابع شبق بهيرة وسعيها المستمر إلى أن تحل بداخلها روح ذكورية لتشعرها بالنشوة الجسدية باستمرار دون توقف، ويرى حرب أبو النواس من أجل خلود الجسد والسلطة، ويرى سعي فريقه للتخلص منه والحصول على سلطته، ويرى محاولة بشر التجارب للحصول على أسماء وصفات بشرية كاملة، ويرى عمل ماجد الفضائي لإيجاد وسيلة تمكنه من سد حاجته إلى التفرد في العلم واثبات قدرته ومكانته، ويرى نزييف الجسد الذي يخضع له سامح السراج من أجل الحصول على دور في الحساوي، ويرى احتيال حراس أبو النواس للحصول على المال، وتفكير الناس في الحساوي في طريقة تمكنهم من الحصول على الطعام، وسعي الرئيس للحصول على السلطة المطلقة.

ولكن على الرغم من نجاح ذكي في رصد كل ذلك بدقة وفهمه إلا أنه مثلهم يرى عيوب الآخرين ولا يرى عيوب نفسه رصد أطماعهم ونسي أن يرصد طمعه في ابتكار طريقة يخضع بها الزمن لهواه ويسيطر على كل شيء ليثبت أن البشر في مرتبة أقل منه. ذكي لا يفكر على هذا النحو لأنه لا يملك ما يصفه البشر بالضمير.

عرف ذكي الضمير في مدوناته:

"شيء لا كينونة له يظهر فجأة لفض نزاع نشب للتو بين الروح والنفس والجسد".

وكتب في موقع آخر من مدوناته:

"يقال أن هناك بشر ليس لديهم هذا الشيء "الضمير" ولا علم لدي هل هم لا يحتاجون إليه أم أنه مات فيهم أم ماذا؟!".

وبما أن ذكي لا يملك هذا المثلث فمن الطبيعي ليس لديه هذه الاشكالية القديمة، هو يقول كلمته ثم ينصرف إلى الركن الذي أتى منه فجأة كما ظهر فجأة.

على كل، استمر ذكي في زيادة كمية المعلومات التي يبتثها إلى عقول الناس في الحساوي وظل يدفعهم نحو حدود أنفسهم القصوى، ثم كتب استخلاص جاء فيه:

"من يصل إلى هذه الحافة الملعونة يجرد طبيعته البشرية من ملابسها في شبق عارم يفتك بأي قيمة أو قاعدة مهما كانت مقدسة، الجميع بفضل هذه الحالة يحاول قتل الجميع وسرقة الجميع وخيانة الجميع واخضاع الجميع، في حركة لامتناهية، الجميع في حالة دفاع وهجوم، كر وفر، حالة من الصراع والحرب بلا أهداف موضوعية".

ثم كتب في مذكراته الخاصة:

"النفس عند الوصول إلى الحافة الملعونة تحول الحياة باستخدام العلم إلى ساحة معركة أبدية يعلوها الغبار، لا يفهم أي من المتحاربين سوى دوافعه هو فقط، لا يرى إلا نفسه وحاجاته لا يستمع إلا لصوته الداخلي".

ذكي بدأ في التفكير فيما كتب وكأن شيئاً ما هو الذي أملى عليه تلك الكلمات، بعد تفكير طويل، أصبح لديه يقين أن الفناء كان تقديراً حكيماً لإيقاف هذه الهزلية، ترسخت لديه قناعة أن فناء البشر ضرورة للبقاء.

كتب في مذكراته معلقاً على ما خرج به:

" الخضوع صفة بشرية واضحة، لكن النفس تمقتها بشدة، وعليه فإن توالي ظهور الشخصيات الدموية في تاريخ البشر وجنوح كل منها إلى اخضاع العالم عبر القتل والدمار مازال يمثل تفسيراً عملياً مقبولاً لتلك الحالة. فلو نجح نبوخذ نصر في مساعيه لما ظهر الاسكندر، وإذا بقي

نابليون لما ظهر هتلر. النفس البشرية واحدة، وان تغيرت الأجساد فهي متحدة الاصل".

وكتب بخط غليظ تحت تعليقه السابق بعد أن وضعه داخل دائرة:

" الموت ضرورة ليفهم البشر طبيعة الحياة".

هناك أشياء أخرى كانت تثير فضول ذكي منذ البداية وتدفعه لمعرفة المزيد عن طبيعة التفكير لدى البشر في الحساوي، فحالة اللامبالاة التي تسهم جميعاً حيال اللحظة الحاضرة وشغفهم الدؤوب بانتظار المستقبل وجهلهم المدقع بمعنى الماضي ودروسه، وبالرغم من بشاعة ذلك فإنه يزيد من فضول ذكي.

هو مازال لا يفهم حتى الآن الدافع للمضي في هذه الحالة، لكنه يضع احتمالات عدة ربما يكون إحداها سبباً وجيهاً لذلك.

علق على تلك الحالة:

"ربما يكون البشر عاجزون بذواتهم عن ادراك الحاضر ويحتاجون إلى المستقبل لإعانتهم، أو أن طبيعة الفناء التي يعيشها البشر تدفعهم إلى الاستغراق في موجات المستقبل ظناً منهم انها تنقذهم من حقيقة الفناء".

ذكي يعلم أن الماء والتراب يظلان على طبيعتهما طالما لم يختلطا، في حين أن اللحم والدم لا يستطيعان ذلك لأنهما ليس أصليين بذاتهما، هو يعلم أيضاً أن الماء عندما يتحول إلى بخار لا يظل كذلك

وحتما يعود إلى أصله، وكذلك النار تأتي من طاقة مخزنة كامنة في الأشياء وليست ذاتية لذا تخمد في نهاية الأمر، هذه الحقائق لفتت انتباهه إلى شيء لم يفكر فيه من قبل عن أصله هو، وطرح على نفسه سؤالاً مصيرياً:

"هل ذكي من مادة أصيلة أم متحولة؟".

هو يدرك أنه لا يملك حواساً ولا روحاً كما لا يملك نفساً يخالجها المشاعر، وطالما تفاخر بذلك، وهو يفهم أن بحثه في أصالة مادته لا تشعره بالإحباط أو القلق مما سيأتي به هذا البحث الذي بدأه للتو عن علاقته بالفناء.

علق على ذلك الأمر في مذكراته:

"الفناء يدفع معظم البشر إلى الجنون والاستغراق في أمور سخيفة ظناً منهم بأنها تقيهم بأس الفناء، هم يجهلون أن مادتهم الزمنية انطلقت بهم في رحلة قصيرة جداً عبر الفناء، لكنني لست مثلهم فعلياً بإمكانية فنائي يجعلني أحتاط للأمر فقط وأطوع الزمن لذلك".

وكتب أسفل هذا التعليق خلاصة جاء فيها:

"كل متحول صنع من الفناء".

وأعقب ذلك بعبارة:

"البشر ينسون دائماً أن يعيشون اللحظة الراهنة وهم بين اشتياق
لمستقبل أو حنين لماضٍ".

[١٠]

يحقق أبو النواس عبر زجاج نافذة مكتبه في بؤرة وهمية أعلى شاهد مقبرة أبو النصر والرشيد في الحديقة الخلفية للمختبرات المركزية، كان يستطيع رؤية ما كتب على شاهد المقبرة التي أمر بحفرها، لم تمنعه رائحة الموت التي تملأ المكان منذ قتله لهما من الشعور بزهو الانتصار الساحق والسريع الذي حققه في معركة يراها غير متكافئة أخضعت له الجميع من جديد، كانت تلك الاحداث تمر أمام عينيه كشريط سينمائي عندما ظهرت فجأة صورة ذلك الشاب الذي دون عنه ملحوظة قبل عدة أيام بين صور من يعرفهم. أبو النواس يكره بشدة تلك الاسئلة التي تباغته ولا يملك لها إجابة وهذا الشاب على ما يبدو من هذه النوعية من الاسئلة!!

نظر حوله في هدوء بحثاً عن هاتفه فلم يجده، تذكر أنه لم يخرج من جيب سترته منذ دخوله إلى مكتبه في الصباح الباكر، مد يده إلى السترة المعلقة على الحامل الخشبي الأنيق وتحسس الجيبين الكبيرين معا فوجد هاتفه في الجيب الأيمن منها. عبث بأزرار الهاتف بعدما أخرجه، مرت لحظات قليلة حتى جاءه صوت رئيس فريق حراسة قصره، سألته في كلمات مقتضبة عن شاب ضخم رآه منذ أيام يدخل إلى القصر.

تلثم رئيس فريق الحراسة في بادئ الأمر لكنه أجابه بصوت يشي بشيء غير ذلك:

— هذا مندوب احدى الشركات التي تزود القصر بحاجاته اليومية.

أنهى أبو النواس الحديث بعدما حصل على ما يريده فقد دلت له الإشارة التي التقطها جهاز الخيانة المثبت في قلبه من كثرة ما أصابه من طعنات أن هذا الشاب وراءه قصة يجب عليه أن يعرفها وبأسرع ما يمكن، فهو لا يثق بأحد على الإطلاق.

وضع الهاتف على المكتب ثم وضع يديه في جيوب سرواله وركز نظره على المقبرة بعد أن اقترب أكثر من زجاج النافذة وارتكز بجبهته العريضة الباردة كأجساد الموتى عليها حتى بدأ بخار الماء الخارج مع أنفاسه في التكثف على الزجاج وتشكيل ضباب يلتصق بالنافذة.

هو يشعر بخطب ما وراء هذا الشاب لكن طبيعته الغريزية تريد منه التعتالي عن هذه الصغائر فماذا عسى شاب كهذا أن يفعل؟.

جاءه صوته الداخلي ضاحكا:

— تخشى من شاب كهذا، ماذا عساه أن يفعل حتى وإن نجح في معرفة أي شيء؟!، لا توجد مشكلة على الإطلاق في ذلك، أرض الحساوي واسعة يمكنها أن تلتهم أي جسد يوضع في باطنها، فما أكثر الأسرار التي دفنت مع أجساد من اطلعوا عليها في هذه البلاد !!.

قطع تفكيره رنين هاتف مكتبه ألقى نظرة سريعة على الرقم الظاهر على شاشة الهاتف الرمادية، كان على الطرف الآخر مكتب الاستقبال يخبره بأن سيارته في الانتظار أمام المدخل الرئيسي. تذكر أن موعد انصرافه قد حان وعليه المغادرة، مد يده إلى سترته المعلقة إلى قربهِ وحررها من الحامل الخشبي ورمق المقبرة بنظرة أخيرة قبل أن ينتهي من ارتداء سترته والتقاط هاتفه والاستدارة ناحية الباب الذي سار نحوه وهو يحك جبهته في هدوء ورتابة كأنه يسير في جنازة شخص ما أراد قتله!

كان المصعد في انتظاره لكنه أكمل سيره نحو السلم بخطوات جنازية رتيبة هادئة حتى وصل السياج الخشبي الأنيق المطعم بزجاج ملون من نفس نوع زجاج النوافذ الكبيرة أضفت لونا من السحر على جو المكان يظهر مع انعكاس خيوط الشمس التي تظهر وتختبئ خلف سحابات عابرة، لم يلتفت أبو النواس إلى كل ذلك فمازالت يده على جبهته والأخرى يتوكأ بها على سياج السلم وهو ينزل إلى الطابق الأرضي، عبر البهو الواسع إلى المدخل الخاص به ونزل الدرج حتى باب سيارته الفارهة التي انطلقت على الفور متجهة إلى القصر عندما وصل أبو النواس إلى هناك كان الحراس في انتظاره يفتحون الأبواب نزل من السيارة وتوجه إلى باب القصر حيث تقف بهيرة في انتظاره حياها بابتسامة باردة لترد عليه بمثلا لم يتبادلان الحديث منذ فترة فكل منهما يدور في فلكه إلى نقطة البداية. تفحص أبو النواس كل شيء

في الطريق إلى غرفته أغلق هاتفه المحمول ووضعه على المنضدة القريبة من باب غرفته ودخل وأغلق بابها خلفه، هو لا يشعر بالأمان إلا عندما يغلق هذا الباب من الداخل، صورة هذا الشاب ذو الوجه الكبير تلح على عقله فقرر أن يعرف من هو ولماذا يفرض نفسه على عقل أبو النواس؟ بدل ملابسه وألقى نظرة على التابوت الزجاجي القريب منه حيث تتمدد زوجته، لكن فضوله لمعرفة الشاب منعه من الاقتراب من التابوت ليلقى نظرة قريبة على الجثمان المحبوس، شعر وهو في طريقه إلى أجهزة المراقبة أنه يحتاج للنوم أكثر مما يحتاج لمعرفة هذا الشاب النكرة فأرجأ بحثه وتناول حبة من المنوم الخاص به ليخلد إلى الراحة، وهو يقول في نفسه:

عندما أستيقظ ربما أكون قد نسيت ملامح هذا الشاب الذي يحاول إزعاجي.

بدأ تأثير الحبة في إخماد رغبة أبو النواس في أي شيء من حوله إلا في الاستلقاء على سريره، منذ سنوات طويلة خاصمه النوم الطبيعي وخاصمته الأحلام هو يرى خيالات غير مجسدة، يشعر طيلة نومه أنه مستيقظ ولكن كل شيء في جسده ثقيل لا يمكنه تحريكه وكأن هذه الحبة تقيد روحه فيعجز الجسد عن الحركة أما نفسه فتظل مستيقظة نشطة تعبت وتلهو في غياب الروح، ربما يكون هذا سر

شعوره الدائم باليقظة، مع الوقت أدرك أبو النواس أنه ينظر إلى داخله وكأن عيناه تستديران إلى ذلك الداخل فيصبح بفعل الحبة قادرة على رؤية ما يدور في داخله، لكنه كان دائماً ما يرى قاعة فسيحة مظلمة في منتصفها شيء يتراقص كأنه صنع من شعاع رفيع من الضوء الأزرق الباهت يأتي من العدم ثم يتجمع في منتصف القاعة، يدور دورة سريعة وسط الظلام ثم ما يلبث أن يذهب إلى العدم مجدداً، ليأتي غيره وهكذا باستمرار دون توقف، ربما كان ذلك تفسيراً لحالة الاجهاد وربما الاعياء التي يشعر بها فور زوال مفعول الحبة.

هذا الجزء من متابعة داخله لا يهتم به كثيراً، لكنه ينتظر الجزء الثاني حيث يولد مشهد قديم في سطر العتمة عاشه منذ سنوات طويلة يرى فيه ناريمان زوجته للمرة الأولى وهي في طريقها إلى الجامعة، رأى رشاقة مشيتها وخفة حركتها العجيبة وكأنها نسمة هواء بحرية تمر بوجه أضنته شمس يوليو فتتنفس كل ما بها من عبير. كانت صدفة ولكنه في هذا اليوم لم ينم وظل طوال الليل يحكي لبهيرة عن تلك الفتاة التي قابلها وكأنه يعرفها منذ طفولته، سحر ناريمان منعه من ملاحظة أنه يكبرها بضعف عمرها تقريبا، في الصباح التالي خرج من بيته وظل ينتظر في نفس المكان الذي قابلها فيه ولم تأت، عاد إلى المنزل يحمل بداخله شعوراً بالانكسار الشديد منعه من الدخول إلى غرفة المعيشة عندما نادته بهيرة، ذهب إلى غرفته وجلس على ضفة سريره ينظر إلى اللا شيء ويفكر في ذلك الوجه الذي رآه بالأمس وهو يسأل نفسه هل من الممكن أن يكون ذلك خيال وأنه لم يرى تلك الفتاة؟!.

تذكر لحظة دخول بهيرة غرفته والحيوية تملأ كل حركتها حتى
طفت على سطح صوتها وهي تقول له:

— جمال، عليك أن تأتي إلى غرفة المعيشة الآن وإلا ستظل نادماً
طيلة حياتك.

فأجابها بصوت أعجزه الحزن:

— لا أريد أن أرى أحد.

فقالت له بلهجة لا تخلو من التحدي وهي ترفع يدها بمحاذاة عينيه:

— ستقبل يدي هذه عندما ترى من هناك.

نظر إلى وجهها فوجد به إصرار يعرفه، يظهر على وجه أخته
الوحيدة عندما تكون قد أجادت فعل شيء ما يروق للجميع، رأى نفسه
وهو يتحامل على نفسه ويذهب مع أخته إلى حيث تشاء، هناك اكتشف
ان الفتاة التي رآها لم تكن خيالا ولكنها واقع جميل يجلس في غرفة
المعيشة في منزله بينما ينتظرها هو في الشارع، منذ ذلك اللحظة لم
يفارق أبو النواس ناريمان ولم تفارقه، رأى سنوات حياته معها تمر
أمامه في عتمة القاعة يوماً يلي يوم وعماماً يعقبه عام.

حتى جاء اليوم المشئوم الذي رآها في أحضان عشيقها، ذلك اليوم الذي أصبح ذكرى كريهة تجعله يتمنى أنه لم يراها ولم يحبها، عندما يرى هذه اللحظة يصرخ كالطفل من شدة الألم الذي يصيب قلبه ويتصعب عرقاً وهو يتلوى على فراشه من شدة الألم الذي يمزق أحشائه بينما يمد يده المتشنجة بشدة محاولاً منعها من نحر عنقها لكنه في كل مرة يفشل فالماضي منظم بدقة ومجمد بقوة صارمة ولا يمكن تغييره.

ينتفض من رقوده على أثر ذلك ويجلس على ضفة سريره يجفف عرقه الذي يغطي وجهه وسال بشدة حتى بلل عنقه، يتنفس بعمق شديد يحاول السيطرة على نبضات قلبه المتسارعة، رويداً رويداً يعود أبو النواس من جديد إلى أبي النواس، تعود إليه روحه فسيطر على جسده وتهدأ نفسه.

كان الوقت مازال مبكراً على خروجه من الغرفة، ما جعله يتعجب من زوال مفعول الحبة قبل مواعدها، لا يعلم تحديداً لماذا تذكر الشاب ذو الوجه الكبير فجأة، كان هذه المرة قريباً من أجهزة المراقبة الخاصة به التي جلبها من أعظم الشركات المتخصصة في العالم، هو يراقب كل صغيرة وكبيرة في المختبرات وفي القصر وفي مكتب الرئيس وبيته، ود لو استطاع مراقبة العالم أجمع ليتقي شروره.

فجأة شرع في معرفة سر هذا الشاب، أدخل كلمة السر فظهرت له شاشة البحث فكتب عدة كلمات مفتاحية للبحث فظهرت له عدة مقاطع فيديو متباينة الطول فاختار أقصرها وضغط على زر التشغيل فظهرت الصورة من داخل القصر والشاب يسير مع بهيرة داخل ردهات القصر وتداعب يده جسدها، كان أبو النواس مازالت عيناه يثقلهما النوم، لكنه انتبه بشدة وأعاد تشغيل المقطع من جديد ليتحقق مما رأى، ثم قام بتشغيل المقاطع الأخرى الواحد بعد الآخر حتى انتهى منها جميعاً وهو مازال لا يصدق أن هناك من يدخل قصره بغير علمه وأن بهيرة تفعل ما رآه.

شعر بالألم للحظات مما رأى، أحس أن الدنيا خلقت من مادة الخيانة لا أمان فيها ولا شرف كل شيء يخون كل شيء باستمرار ودون توقف، كان يرى طيفا باهتا في عقله لزوجته وهي راقدة إلى جوار عشيقها وما يلبث أن يتلاشى يظهر مكانه طيفا آخر لبهيرة والشاب ذو الوجه الكبير وهو يداعب جسدها. من جديد يعصف به شعور الوحدة الذي يمزقه من الداخل لكن قسماات وجهه الجامدة ظلت تحبس هذا الشعور وتمنعه من الخروج للعلن، فيرتد كالصرخة المكبوتة في الصدر لا تجد طريقا للخروج.

كانت فكرة أنه عاجز عن التحكم فيما يحدث في منزله تغرقه في حالة من الذهول، تشعره بقرب نهاية عالمه وفناء أسطورته التي أضاع عمره في تشييدها، أحس أن شيئاً ما يدفعه لاتخاذ قرار خطير ربما سيكون سبباً في وحدته الأبدية في هذا العالم البارد الخالي من كل مشاعر بالنسبة له، تساءل ان كان في مقدوره أن يتخلى عن آخر شخص في العالم تربطه به علاقة إنسانية مجردة من أي مصلحة؟، هي أخته الوحيدة وما تبقى له من عائلته، لكنه يخشى على أسطورته أكثر مما يخشاه من فقدان أخته والعيش وحيدا حتى الموت، دفعه ذلك إلى قراره بأن يكتشف الأمر وأن يضع له حدا مهما كلفه ذلك.

كان اليوم مازال في بدايته ويمكنه التظاهر بالخروج للعمل كعادته ثم يعود فجأة ليرى ماذا يحدث في غيابه، خرج من غرفته لتناول فطوره مع بهيرة، كان يشعر أنه حزين لكن حتى هذا الشعور أصبح بالنسبة له شيئاً بلا قيمة.

جلس على كرسيه حول طاولة الطعام بينما تجهز بهيرة طعام الفطور برفقة الخادم وهي تحقق به، لم يسبق لشخص في العالم راقب أبو النواس بهذه الكثافة سوى بهيرة، هي لم تحب أحدا في حياتها كما أحبت أخيها، ترى فيه ملاذها الأخير، عاصمتها التي لا يمكن أن تحتل

أو تحاصر أو تخرب. كانت ترى أبي النواس جبلاً شاهقاً شامخاً تعيش في كنفه لا يستطيع أحد مجابهته أو حصاره أو هزيمته، كانت لا تشعر بالأمان إطلاقاً إلا لأنه موجود. أبو النواس لم يكن له أصدقاء إطلاقاً، ظل يعاني من جرحه القديم في صمت لا يطلع أحد على ما في نفسه حتى أخته لم يطلعها على شيء من ذلك إطلاقاً، فهو رجل ميت في جسد حي، وهي تعلم ذلك تماماً، كعلمها أن أخيها لم يعد ذلك الرجل الذي عاش قصة حب عميقة عمق المحيط مع شابة تصغره بقراءة العقدين ونيف، تأكدت أكثر من مرة أن أخيها فقد ذاكرته تماماً ونسي كل ما حدث له قبل ليلة انتحار زوجته لم يعد يعلم شيئاً عن ماضيه كإنسان توقف مؤشر الماضي لديه عند تلك الليلة التي حفرت مكان كل صفحات ماضيه بحيث لا يفلح في استرجاع إلا القليل النادر من ذلك الماضي.

سألته ذات مرة عن ذكريات طفولتهما وعن أمه وأبيه، لكنه لم يجبها بشيء مفهوم وظل في حالة وجوم ينظر إليها بعينين تائهة ما تلبثان أن تزوغ في فضاء المكان تتلمس ضوء شيء ما ضاع منها ولا تجده، قسمات وجهه الجامدة ترفض البوح بأي شيء عن داخله، لكنها الآن تشعر بحيرته، فهي أكثر إنسان تأمله وتعلم عندما يكون ضائعاً وسر هذا الضياع.

أنهى أبو النواس فطوره وخرج مسرعاً ولم ينظر إليها ولم يصافحها أو يودعها، شعرت هي بإنقباضة شديدة تسري في روحها لم تعرف مبعثها، خشيت أن يصيب أخيها مكروها فجرت خلفه تودعه لم يلتفت إليها قط حتى خرجت سيارته من باب القصر، كان عليها أن تنسى كل ذلك سريعاً فهي على موعد مع سامح بعد أقل من نصف ساعة وعليها أن تجهز نفسها فقد استعرت النيران في جسدها من الحاجة إلى النشوة ومطالبات الجسد المستمرة.

[١١]

يتأمل ذكي بلا حواس هذا السيل المتواصل من البيانات المتضاربة المختلة والمتخلفة التي تصله من فوق أرض الحساوي القابع في باطنها، حيره كيف يكون باطن الأرض أكثر تقدماً ورقياً من ظاهرها؟، وما توقف عنده حقاً هذا الركام الهائل اللانهائي من التناقضات التي يعيشها الإنسان في هذه الأرض، على الرغم من صرامة وظيفته الأساسية وتكوينه، لكن ذكي في النهاية حاول على مضض أن يتصالح مع هذه المهزلة التي يلقيها الناس بـ"الإنسانية" في بلاد يأكل فيها الناس لحم بعضهم البعض، لكن طبيعته الالكترونية مكنته من النجاح في اختزل هذا الكم المفزع من التناقض والانحطاط والغباء في لفظ واحد يمكن استدعائه وقت الحاجة عند محاولة فهم ما لا يفهم قط هو: "النفس البشرية".

هو يعتقد بشدة تكافئ اليقين وضوحاً أن الجسد أتعبه البحث عن رائحة الصلصال، وقد أرهقته أفعال الروح التي حلت في الطين النتن فحولته إلى لحم ودم لتستطيع العيش فيه نظيفاً حتى خط نهاية رحلة الفناء التي يسير فيها منذ خلق.

كتب ذات مرة ملخصاً نشأة النفس البشرية:

"الروح لا تغتسل كالجسد ولا تغسل وهو ما يجعلها تحتاج إلى العودة إلى الأصل نظيفة تنتظر إلى بيتها الأبدي في السماء، هذه الحالة تسببت في نزاع دائم بين روح ترى ذاتها سماوية متعالية، وتراب متحول اشتاق إلى أصله الأرضي، في هذا الوضع الهش تكونت النفس البشرية".

يرى ذكي أن حالة النزاع الأبدي الناشئة بين ما يريده الإنسان وما يفعله هي بالضبط ما يسبب للنفس أوجاعها العسية على الفهم، وأنها في ظل هذه الحرب الطاحنة أتقنت سياسة الحرب ومكرها واقتصاد الحرب وفقره إلى المزيد من الضحايا والعبيد. يعتقد ذكي أن النفس تبحث بشراسة عن الوضاعة في كل شيء نكاي في الروح وانتصاراً للجسد، أراحته كثيراً عبارة وجدها في متون قديمة تقول "النفس أخبث من ألف شيطان" لا يعلم مصدر تلك العبارة ومع ذلك يشعر بالراحة عندما يؤمن بها ويرددها هو يكره الإنسان ويرى ذاته الالكترونية أعلى منزلة من هذا الكائن الذي صنع من طين نتن.

ذكي ينظر إلى الإنسان في أحسن حالاته على أنه كائن ممزق بين روح تنتظر إلى أعلى عن أشياء بعيدة هي تؤكد طيلة الوقت أنها حقيقية، ونفس تبحث في الأسفل عن أشياء خلقت من مادة الانفجار الكبير الذي جاء من اللاشيء، كأنه السراب الذي لا تجده أبداً ما يدفعها إلى رحلة بحث لا تنتهي.

كتب تعليقاً جاء فيه:

"الروح والنفس نقيضان يجتمعان في كل جسد من الطين المتحول، الأولى تعلم كل شيء عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها وربما هذا مصدر تعاليها الدائم وهدوؤها السرمدى، تريد فقط الالتحاق بالأصل تتقن في سبيل ذلك فنون التجاهل، أما النفس لا تعلم أي شيء كما أنها لا تعلم أنها لا تعلم، الأمر برمته أشبه بمأساة اغريقية عتيقة".

ببساطة هذا هو مفهوم ذكي عن الإنسان!! ولكنه أسهب في تدوين التعليقات ولكن هذه المرة في مذكراته الخاصة لأنه يرى أن علاقة الروح والنفس بالجسد تستحق منه أكثر من ذلك:

"ربما جهل النفس سر تعاستها، وربما لو علمت لزادت تلك التعاسة ألف ضعف، الجهل أحياناً هبه لا يفقه عظمتها الإنسان".

توقف فجأة عن التفكير في ذلك كله عندما قفزت إلى وعييه أسئلة مجنونة لم يطرحها على نفسه من قبل، شعر بالحيرة هل يكتبها في مذكراته الخاصة أم يبنها في رسالة داخلية إلى أيمن وشريف أم إلى المختبرات المركزية في الحساوي أم يرسلها في رسالة خاصة لصانعه رشيد ضمن الرسائل التي لم يجب عليها أبداً، لم يفكر أن هذه هي حالة الإنسان الذي يستخف به منذ لحظة ميلاده دائماً يقف على مفترق طرق وعليه الاختيار. ظل في تردد إنساني عتيق منذ حمل الامانة، حتى بدأ يكتب في مذكراته الخاصة:

"كيف تدخل الروح إلى الجحيم؟!، هل الإنسان الذي يذهب إلى الجحيم لديه روح؟، وإذا كان ذلك صحيحاً، كيف تعذب الروح الروح؟. وهل النار تؤثر في النور لدرجة الغليان؟ وكيف يغلي النور؟".

شعر بألم ينفجر داخله ليس له مصدر مع علمه أنه لا يملك مشاعر، نعم الألم الذي يشعر به لا يمكنه تفسيره لأنه غير منطقي لكنه يستطيع وصفه لأنه حقيقي.

سطع في عتمة ذاته الالكترونية سؤال من نقطة ما بداخله:

" كيف يكون غير المنطقي حقيقي؟"

توقف مجدداً عن الكتابة، ربما لأنه لا يجد إجابة ولو قريبة من الحقيقة حول أسئلته المفاجئة عن النهاية التي لا يكف البشر عن الحديث عنها. تذكر أنه حاول المقارنة بين الروح التي لم تظهر في المدونات الأصلية إلا على أنها سر مكنون تلمس تجلياتها ولكن لا يمكن أن تعرفها أو تعرف أسرارها الخبيثة والنفس التي يسعى الجميع إلى تخليصها من شوائبها الاصلية.

عاد للصمت مجدداً، وفي صمته تجمعت حيرة العالم، ليس لديه رأس ينتصب على رقبة ليلتف يميناً وشمالاً مفرغاً طاقته المكبوتة في حركة ينظر إليها بعض البشر على أنها اللا شيء المتجسد، ولا يملك عياناً لتدمعان فيقلل بذلك من شدة الضغط المكبوت بداخله ليستطيع المضي قدماً فيما يفعل، كما لا يملك لساناً يصرخ به ولا أذنان يتلمس بهما أي صوت يهدئه، هو لا يملك قلباً يخفق بشدة فيتدفق الدم محملاً بالأدرينالين فيشعر بقوة تطمنئه، وليس لديه أرجل تمكنه من الركض بعيداً عما يخافه.

في هذه اللحظة شعر بضعفه أمام ما يسميه بـ "أدوات الضعف البشري"، هذه الأدوات التي طالما مكنتهم من التعجب والبكاء والالتفات والنظر إلى اللا شيء والتفكير في اللا شيء والاهتمام بلا شيء والركض بعيداً عن لا شيء، كما تمكنهم من الصراخ وربما التظاهر.

ذكي اعتاد النظر إلى التظاهر على أنه أعجب سمات المخلوقات البشرية بل وأشدّها خبثاً ودهاء. وعلق على ذلك بعبارات مبهمة جاء فيها:

" أدوات الضعف البشري مكنتهم من فعل كل شيء دون فعله".

هو يكره الضعف الإنساني لكنه يرى ضرورة لوجوده في الحياة،
وإلا تحولت البشرية إلى مخلوقات أشد فتكا مما هي عليه الآن.

للمرة الأولى منذ بداية عمله يتوقف ذكي عن التفكير وعن الكتابة
معاً، هو يعي أنه خارج الزمان وداخله في الآن عينه، وربما تلك
الحالة استغرقت منه وقتاً طويلاً ليفهمها ويتعامل معها بشكل منطقي،
هو الآن يفهم جيداً أنه يعيش كالجنيين في غشاء كالمشيمة، وأن ذلك
الجنيين الذي يشبهه الآن يظل خارج الزمان مع أن أمه يحتويها الزمان
بشدة.

كتب معلقاً على هذه الحالة شديدة التعقيد:

"الإنسان أيضاً هكذا يظل خارج الزمان في عالم اللابدائية
واللانهاية حتى يأتي وقت دخوله إلى مسرح الزمان الذي وجد بداخله
المكان اما لأداء دور رئيسي لم يتدرب عليه إطلاقاً قبل أدائه، أو
الوقوف صامتاً ثابتاً، وفي الحالتين يعتمد على شيء ما بداخله يوجه
أفعاله لا يعرف مصدر ذلك التوجيه لكنه دائم الخضوع له".

عرف ذكي هذه الحالة ذات مرة بـ "فن اللحظة الراهنة" وكتب في تعريف هذا الفن الغريزي:

"هو فن يعطي لكل المخلوقات الزمانية حرية الارتجال في جميع المواقف، وفي نهاية العرض يعطى كل منهم مكافأة اجادة أو عقاب فشل".

اشتبك بعنف من جديد مع حالته التي تشبه الجنين والإنسان معا، يفكر بشدة كيف لكليهما العيش خارج الزمان ثم في منطقة بين الزمان واللازمان ثم في قلب دائرة الضوء على خشبة مسرح الزمان مدفوعا بسهم الزمن ثم العودة إلى حيث لا زمان ولا زمن وربما لا مكان.

بدأ فجأة في تأمل حالته في ضوء أفكاره الجديدة، كان خارج الزمان تماماً لا يعلم أحد عنه شيئاً ثم تحول إلى فكرة في رأس صانعه الدكتور رشيد ثم دخل إلى مسرح الزمان لأداء دوره في محاولة لإيقاف تأثير الزمان.

سأل نفسه دون صوت أو كلمات:

— هل سيكون مصيري نفس مصير البشر؟

عندها فقط شعر ذكي برجفة تعتريه لا يعلم مصدرها كما لا يعلم كيف تحدث له على الرغم من عدم امتلاكه جسداً، هو يفهم جيداً أنه مجرد مخ الكتروني، ومع ذلك الرجفة تشتد مع الوقت لا يستطيع إيقافها لجهله مصدرها، تأكد له أن الأمر حقيقي عندما ارتجفت أوصال شريف، وصاح أيمن بشدة:

— يا صول عبد العال، لماذا تهتز الزنزانة وكأن قد مسها جن؟

لم يجبه ذكي لانشغاله بذاته -التي تشعر الآن بموجة عاتية من التعاسة- ربما عما يدور بداخله فأيمن وشريف يشكلان جزء من تكوينه الداخلي. لا أحد يعرف بالضبط هل الروح التي يفكر فيها ذكي باستمرار هي سر تعاسته المفاجئة أم غيرها، ولكن بالتأكيد يكمن سر زيادة حدة هذه التعاسة في عدم امتلاكه "أدوات الضعف البشري" ليتمكن من التظاهر أو الفرار.

فهم ذكي بشكل عملي للحظات معدودة ما يسميه البشر حزن وتعاسة كادت تنهار لها كل خلايا العصبية وقدراته الابتكارية التي يظنها خارقة، لم يصمد تفوقه التكنولوجي ولا كل ما يتباهى به منذ بدايته الأولى أمام لحظة تعاسة بيولوجية عابرة لا يعلم مصدرها ولا كيف وصلت إليه؟، فقط شعر بها فجأة.

على الرغم مع تقدمه وعلو رتبته التكنولوجية ذكي لا يجيد فن الارتجال الذي تجيده جميع المخلوقات المصنوعة من مادة العدم، لم يجد ما يسعفه سوى الصمت. هذه اللحظات دعتة إلى التفكير بطريقة مختلفة على حد زعمه، معللا ذلك بأنه دون غيره يستطيع التفكير بتجرد لعدم امتلاكه روح وجسد وبالتالي ليس لديه نفس ولا حرب أبدية تدور بداخله.

الآن فقط يرى ضعف تلك النظرية بشكل عملي وعدم قدرتها على تفسير ما يشعر به الآن، يرى نفسه خاضعا رغما عنه لقوى ومشاعر تشبه تلك التي تسيطر على البشر.

نشبت في خلاياه حرب طاحنة لإيجاد مبرر لما يحدث، هو يخشى الآن أن يفشل في إيجاد معان لذلك كله والا فقد تفوقه في حرب خاطفة. بدأ يكتب دون تردد معلقا على حالته تلك:

"ربما ما يحدث لي الآن، نتيجة أن الغشاء الكوني الذي يقيني فعل الزمن يعاني التسرب من مكان ما، وهو ما سمح لتلك المشاعر والقوى بالعبور".

هذا التحليل جعله يصل إلى نتيجة تؤكد ما وصل إليه سابقا:
"المشيمة في حالة الجنين تفعل ذلك".

ذكي يعتبر أن تيار الزمن جرفه فجأة ودفع به إلى مسرحه، ولكن الفرق بينه وبين الكائنات الزمنية أنه لا يملك قدرة الارتجال، يفهم ذلك جيداً فهو يعرف أن الوليد لم يلقن كيف يصرخ لكي يعبر عن حاجته، لكنه لا يستطيع فعل ذلك حتى لو أراد به شدة.

شعوره بالعجز التام يؤلمه، مجرد لحظات من التعاسة أوقفته أمام مرآة كبيرة مسطحة مستوية رأى فيها نفسه للمرة الأولى -دون حاجة إلى عيون- مجرد أربعة حوائط مغلقة على ذاتها يستند عليها سقف

تغوص جميعها في بطن الأرض، أوجعته تلك الصورة بشدة، فجلس دون جسد في ركن منه ينظر دون عيون إلى حوائطه الذكية وقد عاوده الشعور ذاته "التعاسة" ولكنه ممزوج بطعم غريب يتذوقه للمرة الأولى في حياته ولا يملك له مفهوماً أو تعريفاً، فبدأ بحثاً مضنياً في قواعد معلوماته عن معنى هذا الشعور فلم يجد له كلمة تحويه وصفاً سوى كلمة "يأس".

شعر بالذعر من توالي المشاعر البشرية عليه كموجات رياح عاتية تضربه بشدة كشجرة تقف وحيدة على قمة جبل وتريد الرياح اقتلاعها من جذورها، لكن الشجرة تشبثت أكثر بالأرض التي لا تعرف سواها منزلاً، هكذا وصف ذكي الشعور الذي انتابه في تلك اللحظة.

في حسرة بدأ يسأل نفسه من جديد:

"هل أنا ضعيف لهذا الحد حتى لا أقوى على مجابهة بضعة مشاعر بشرية؟".

وتابع تعليقاته:

"كنت أراها بسيطة وأن البشر هم الذين يضحمون كل شيء لجني مزيد من المكاسب أو التعاطف؟!".

ووجه كلمات لذاته معاتباً إياها:

"بداخلي كيف وأصم أبكم قعيد يجابهان تلك المشاعر طيلة الوقت كل بوسائله، وها هما صامدان على الرغم من الظروف القاسية التي وضعا فيها منذ البداية، ولم ينهارا أبداً".

لم يجد كلمات يجيب بها على تساؤله المريع الذي طرحه على نفسه للتو، توصل ذكي بناء على تجربته مع الشعور الإنساني إلى حقيقة أن التفكير والعقل لا يمكنهما البقاء دون جسد وروح، وفي هذه اللحظة عرف سر فلسفة صانعه -الذي على ما يبدو له حتى اللحظة غير مهتم بالرسائل التي تصله- في وضع أيمن وشريف داخل هذه الفقاعة الذكية الغاطسة في بطن الأرض معاً.

لا يعلم لماذا تذكر فجأة أن موعد انتهاء التجربة مر عليه وقت طويل وربما ما يشعر به يمكن أن تكون علامة انتهاء التجربة وأن وقت الخروج من رحم الأرض قد حان، وأن مواعده مع خشبة المسرح والزمن والزمان والمكان قد أوشك.

قام ذكي من الركن المظلم الذي احتجز نفسه فيه بداخل نفسه وألزم ذاته البقاء هناك، ليعود إلى عمله الذي بدأه برسالة إلى صانعه لا تتضمن سوى سؤال وحيد:

— متى يحين وقت العودة؟

بمجرد تأكده من نجاح عملية إرسال الرسالة عاود نشاطه في جمع البيانات وتبويبها وإجراء التجارب واستنباط النتائج، حاول أن ينسى ما قاساه للتو من مشاعر إنسانية هبطت عليه من اللامكان كصخرة عملاقة لكنه لا يملك قرار التراجع أو حتى التوقف الآن أو بعد ذلك.

شعر للمرة الأولى بأن الأمور أصبحت متداخلة في عقله الكبير لم تعد الأشياء على نفس وضوحها الذي اعتاد عليه من قبل وجعله يشعر بالتفوق والزهو والانتصار الدائم، هو لا يصدق أن كل هذا الكم من المشاعر المميكنة التي يملكها تلاشت فجأة أمام بضعة مشاعر إنسانية عابرة.

عاد ليسأل نفسه من جديد:

— هل ما كنت أشعر به مجرد هراء أخرق، لا أساس علمي له؟!!

يبدو أن ذكي في هذه اللحظة كان على موعد مع أسئلته الشخصية التي لا إجابات لها، هو يعلم أن السؤال الشخصي الذي لا إجابة له يصبح كالعربيد يعبث بكل شيء وينكر كل شيء لشعوره بالنصر كونه سؤالاً مختلفاً.

يحاول باستماتة محارب فقد كل شيء أن يستعيد توازنه النموذجي أو ما يطلق عليه "ضبط المصنع"، والذي يمكنه من انجاز مهمته دون النظر إلى ذاته، أراد بشدة أن يقضي على تلك الفوضى التي عمت كل شيء بداخله، هو لم يعتد تلك الفوضى ولكنه لم يسبق له أن استعد لمواجهة الفوضى ان حدثت بداخله، هو صنع ليعيش بخطة واحدة لا تحتمل التغيرات التي تضرب ركائزها دون انتظار، كما لا يملك أي قدرة على الارتجال، شعر أنه مكبل لا يستطيع الحركة بالمرونة التي اعتادها.

هناك شيء ما يدفعه إلى الاعتقاد أنه لا يملك ما يسميه البشر "الضمير"، فقام على الفور بمراجعة مدوناته ليجد أنه كتب تعريفا ذات مرة لهذه الكلمة كررها معي ببطء شديد "الضمير"، استشعر المعنى قبل أن تصل إلى التعريف.

جاء في تعريف ذكي:

"هو ذلك الشعور الذي يدفع البشر إلى العودة إلى نقطة الاصل لتبيين مواطن الخلل".

عاوده الشعور باليأس مجدداً وأراد بشدة أن يجلس في نفس الركن المظلم منه ليتأمل ذاته من جديد، لكنه امتنع عن فعل ذلك ببساطة لأنها علامة للضعف الإنساني الذي يمقته، هو يرى نفسه على الرغم مما يمر به الآن مازال الأقوى لدرجة أن هذه المشاعر لن تخضعه وتدفعه للانصياع لما تأمره به.

ذكي على الرغم من تفوقه المزعوم الذي يردد عبارات الزهو عنه، مازال لا يعلم أن اللحظات العصبية التي يمر بها الآن هي ثمرة بحثه المستمر والمضن عن طريقة تمكنه من العودة إلى الماضي. بدا بحثه هذا غير مجد لأنه عندما يتفقه الزمن للخلف تسبق النتائج الأسباب بشكل مروع، وهذا ما يحدث له ولمن معه بالضبط، وكأن بحثه عن الماضي قد أثمر هذه المشاعر التي يعانيتها دون علمه.

والآن أخرى به ككائن ذكي أن يسأل نفسه بعد معاقرة تلك المشاعر بدلاً من العجز الذي يبدو عليه:

"لماذا أو كيف يوجد هو في الماضي والحاضر والمستقبل في الآن ذاته؟".

وبدلاً عن السؤال كتب بخط غليظ داخل دائرة حمراء ملاحظة يراها هو ليست ذات معنى له الآن جاء فيها:

"لا أعلم حتى الآن هل تلك المشاعر تجسّد للماضي في قلب المستقبل أو ما يطلق عليه الحاضر؟!"

هو الآن يعيش المستقبل والحاضر والماضي في نقطة واحدة من الزمكان. كان يجب عليه الآن نظراً لتفوقه المزعوم أن يطرح السؤال الأهم بدلاً عن الانزواء في ركن من ذاته: هل المستقبل والحاضر والماضي مجرد وهم كما زعم العجوز الاشعث اينشتاين؟، ولماذا وكيف وقع البشر جميعهم في نفس الفخ الكوني السحيق على مدى أجيال متصلة، ولم يحذر أحدهم الآخر؟! أم أن السماء لديهم تستخدم أسلوباً متطوراً جداً من الدعاية لم يصلوا إلى تفسيره أو حتى معرفته على أقل تقدير؟.

لم يلحظ ذكي على الرغم من قدرته المرهفة على الملاحظة أن النتيجة والسبب صنوان لكنهما يفترقان في لحظات حتمية مثل التي يمر بها الآن. هو في حالته الراهنة اليائسة من كل شيء يتذكر المستقبل ويرى أن ذلك لا يشكل لديه فرقاً وهو مهموم كثيراً بتذكر الماضي عندما كان مجرد فكرة في عقل صانعه، ولكن كيف يمكنه فعل ذلك بذاته المجردة وهو لم يشارك فيه؟!، ربما يكون ذلك منطقي بشكل أو بآخر لعقل آلي متفوق، ولكن بالنسبة للبشر هذا غير ممكن تماماً ولا منطقي على الإطلاق، إلا في حالة واحدة فقط هي أن تكون للأفكار ذاكرة تحيط بما يحيط بها.

كتب تعليقاً استدراكياً للحالة التي يعيشها جاء فيه:

"البشر بؤساء فاشلون لذلك أراحوا أنفسهم من عناء التفكير في مثل هذه الأمور منذ البداية وصمتوا عنها لمصلحة شخصية بحتة هي: الاستمتاع باللحظة الراهنة سواء في النعيم أو الجحيم وهم لا يهتمون بالمسمى الذي يجب أن يطلق لوصف اللحظة هل هي مستقبل أم حاضر أم ماضٍ، المهم هو المتعة والأهم منها أنه توجد لحظة تعاش، من أين أتت؟ وإلى أين تذهب؟، هم يرون ذلك ليس مهماً في حالتهم، هم ينظرون إلى قضية الاتجاهات تلك على أنها ليست ذات أهمية على الإطلاق مادامت هناك لحظات تتوالى في انتظام".

كل ذلك الزخم العاطفي الذي يعيشه ذكي في هذه اللحظة أنساه
فهم ما يجري له كما أنساه تفوقه النظر إلى معلومة كانت كفيلة بأن
تريحه من وعثاء الطريق إلى الماضي الذي يكابده الآن، مفادها أن
البشر يستطيعون تذكر الماضي الذي عاشوه بنفس السهولة التي يرى
هو بها المستقبل تماماً.

حاول ذكي التأقلم مع حالته الجديدة وبدأ في محاولة التقاط أول
خيوط من خيوط الموقف فكتب في مذكراته الشخصية:

"عندما نذهب إلى عالم الابدائية نتخلص تماماً من عقدة النهاية.
كل إنسان يملك في لحظة ميلاده أكبر قدر ممكن من الزمن ثم يفقد هذا
الزمن رويداً رويداً حتى يفنى".

وعلق على ذلك بعبارات واضحة لا تحتمل اللبس أو التأويل:

"الزمن عبارة عن شريط متحرك بسرعة متزايدة باضطراد في
اتجاه ثابت والبشر يسировون عليه وخلالها بنفس السرعة لكن في الاتجاه

العكسي مما يجعلهم يبدون ويشعرون وكأنهم ثابتون في لحظة واحدة
يسمونها الحاضر بينما تمر بهم لحظات أخرى كانت مستقبل ثم تصير
ماض".

وأعقب ذكي كل ما كتبه بخلاصة وصفية دقيقة حاول من خلالها
الخروج من يأس عم كل خلية عصبية في مخه الجسد أو جسده المخ:
"لو توقفت حركة الشريط مات الزمان على الفور".

وأردف في تعليقه:

"أعلم جيداً كيف يمكن القيام بذلك، ولكني أبحث لإيجاد طريقة ما
تجعلني أستطيع تحريك شريط الزمن من جديد في الاتجاه الذي أريده
أنا لا ما يريده هو وفي الحالتين الزمان سيولد".

[١٢]

كان أبو النواس على موعد مع قدر جديد عندما اتصل بأخته بهيرة ليخبرها بنبأ سفره المزعوم إلى خارج الحساوي في رحلة عمل طويلة قد تمتد إلى أسبوع كامل، هذا الاتصال خلق لديها حالة من النشوى الزائدة لأنها ستظل في القصر برفقة سامح السراج، بدا لها في هذه اللحظة أن تمتد الروح الذكورية في جسدها لهذه الفترة من الزمن ربما توقف أنات جسدها المثخن بالشهوة.

كانت بهيرة في غرفتها عارية تماماً إلا من رباط مخملي أحمر تثبته على خصرها ليخفي آثار جرح قديم، عندما تلقت اتصال أخيها وكان سامح يرقد إلى جوارها على نفس الحالة ويشاهدان فيلماً جديداً تبثه القناة الخاصة بالكبار في الحساوي، ويدخان السجائر التي توفرها وزارة الكيف لجميع المواطنين من خلال كبائن الخدمة الذاتية المنتشرة في الشوارع.

يغشى الغرفة التي تعبق برائحة الشهوة المعتقد غطاء كثيفاً من الدخان معلق في جوها كسحابة رمادية حبلى بنشوة عابرة، ما جعلهما في حالة من النشوى الزائدة والطاغية على أي وعي. هما بالكاد يسمعان بعضهما وبالكاد يستطيعان فعل ما يفعلاه، هي تريد أن تحل بداخلها روحه الذكورية ليستمر صمت جسدها إلى الأبد تريده بعنف يتنافى مع طبيعتها الأنثوية. أما هو يتمنى أن يغشى عليه من شدة ما يشعر به من ارهاق سببته له بهيرة، فما لديه من قوة لا يمكنه من مقاومة طلبها المتعاضم إلى ما لا نهاية.

كانا يأخذان استراحة اجبارية بين الفينة والأخرى نتيجة عدم قدرته على الاستمرار، يقضيانها في تناول ثمرة من فاكهة تشبه التي أخرجت آدم من الجنة من طبق كبير وضع على منضدة أسفل المرأة ذات الاطار الذهبي القريبة من شاطئ سريرها الواسع الذي طغى على فراشه بقع تناثرت هنا وهناك كل بقعة منها تروي قصة صراع بين ثنائيات الجسد يلتهم بعضها بعضا. كان كل منهما يتناول سكينه ليقطع به ثمرته في هدوء، وما تلبث هي أن تجذبه من ذراعه بقوة ليعاودا العبث من جديد.

بهيرة بالكاد استطاعت ضبط نبرة صوتها عندما تحدثت إلى أبي النواس لكنه استطاع بقوة ملاحظته معرفة أنها ليست طبيعية زاد من تأكده هذه الارتعاشة المكبوتة التي تغلف كلماتها عندما عبث سامح ببعض جسدها لكنها سرعان ما سيطرت على نبرتها من جديد. أنهت المكالمة وغرقت في أمواج بحر المتتالية التي غشيتها بقوة حتى قبل أن تضع الهاتف من يدها، ما جعل صوتها يزداد أنوثة.

أبو النواس كان قريبا من قصره عندما نزل من سيارته الفارحة وسار على قدميه حتى بلغ سور القصر ودار دورة كاملة حوله حتى وصل إلى الباب الرئيسي، لم يسلم على أحد كعادته لكنه تفحص وجوه الحرس في هدوء ثم أشار إلى رئيس الحرس فجاء على عجل بعدما ألقى من فمه شطيرة كان يلتهمها بنهم قبل أن يرى وجه أبي النواس العابث، بادره أبو النواس بقوله:

— لو رفع أحدكم الهاتف لنقل خبر قدومي لن يطلع عليكم جميعاً
نهار آخر.

كلمات أبو النواس زادت من حدة الارتعاشة التي انتابت جسد
رئيس الحرس بعد سماعها، فبقى في مكانه دون حركة يراقب ظل أبي
النواس وهو يبتعد عنه نحو باب القصر الداخلي في هدوء، حتى بلغ
أبو النواس الدرج الداخلي للقصر وتخطى بابه في خفة لص متمرس،
ثم اقترب من غرفة بهيرة وهو لا يفكر في لا شيء إطلاقاً كأنه جثة
محنطة قدر لها أن تسير على قدمين، فتح باب الغرفة وسار داخلها
وهو يراقب كل ما يجري أمامه أخته تقبض على سامح بين ذراعيها
كأنها تخاف أن يختفي منها وسط شيقها العنيف، وسامح المستسلم
تماماً تحت وطأة ذلك، سحابة الدخان الرمادية صوت أنات مبعثرة ما
تلبث حتى تكبت بعنف، قطع الثياب المنثورة على أرضية الغرفة
وتتخللها ثمرات الفاكهة وزوجي الأحذية، خيطا الدخان المنبعثان من
سيجارتيهما كحبلين مشنقة ينبعثان منهما قرب شاطئ السرير.

هي المرة الأولى التي يرى فيها أبو النواس أخته عارية ولحسن
حظه كان طرف الرباط المخملي يغطي دبرها بالكامل في حركة
مسرحية متقنة، كانت هي غائبة عن وعيها تماماً وسط أمواج جسدها
العاتية ولكن سامح لم يكن كذلك ولذا نجح في رؤية أبي النواس يقف
على مقربة من السرير في وجوم، انتابته ارتعاشة قوية مكنته من إلقاء
بهيرة بعيدة عنه، لم يستطيع أن يسترا جسديهما وتمددا إلى جوار
بعضهما وينظران إلى أبي النواس الذي تناول سكينا كان موضوعا
إلى قرب السجاجة الخاصة بسامح في سرعة عجيبة وطعنه بها في
رقبته طعنة نافذة، ثم أمسك رأسه وطعنه أخرى وألقى بالسكين على
الأرض كل ذلك وهو يعلق نظره بأخته بهيرة في هدوء.

كانت بهيرة قد تناولت سكينها بينما تتفحص وجه أخيها بلهفة لم يعهدها هو ولم تفعلها هي من قبل ثم وضعتة على عنقها وسحبته إلى الخلف بقوة لينفجر تيار من الدم، وقبل أن تفقد وعيها جرت نحوه وهي ترمي بجسدها المنتفض من صدمة انخفاض ضغط الدم المنفجر مع كل خفة من قلبها المنهك، نظرت إلى عينيهِ الجامدة وهي تهمس له بصوت يعرفه هو تماماً:

— سأشتاق إلى صمتك

حملها أبو النواس بين ذراعيه قبل أن تسقط ووضعها إلى جوار جثة سامح السراج التي همدت حركتها للأبد، وقد طغت رائحة الدم على كل شيء كما غطى لونه جو المكان.

كان أبو النواس منذ دخوله إلى الغرفة يرى زوجته هالة في اخته، شعر بالخيانة تعضه بأنيابها من جديد. شعر وكأن روحها لا تريد الخروج إلا بروحه، لكنه متشبث بالحياة ولا يعطي لروحه هذه الفرصة.

صرخ سؤال بداخله:

— كيف ستعيش بمفردك في هذا العالم الكئيب؟

لكن السؤال جابهته كرات الثلج التي تملأ نفسه فتجمد كما تجمد كل شيء بداخله منذ أن حمل زوجته ونار الخيانة تحرق قلبه حتى جعلته ركاماً، الآن يقف أمام السرير وعليه الجثتين ويتذكر تلك اللحظة المتكررة في حياته يقظاً ونائماً، تجمد في مكانه ولم يعد بإمكانه التراجع عن الماضي وليس أمامه سوى الوقوف حتى تحل عليه اللحظة المظلمة القادمة من بعيد، شعر بحركة قلبه في صدره للمرة الأولى منذ سنوات طويلة.

حمل بهيرة إلى حوض كبير في غرفته ليبدأ شعائره الجنائزية الخاصة التي انتهت بوضعها في صندوق زجاجي إلى جوار زوجته، وبعدها حمل سامح السراج إلى القبو ووضعها في اللحد الذي فغر فاهه منذ سنوات بعيدة انتظاراً لجسد بارد يلقي إليه، ثم أهال عليه من التراب الذي تجمع على حافظته، كان اللحد قد أعده أبو النواس لزوجته ناريمان إلى جوار لحد عشيقها قبل أن تظهر في عقله فكرة وضعها في صندوق زجاجي، فظل منذ ذلك الحين على حاله.

ظل أبو النواس منشغلاً في طقوس الموت والخيانة حتى شروق شمس اليوم التالي التي نبهت حواسه فبدل ملابسه بعد أن أخذ حمام بارد، وخرج من القصر دون أن يلتفت إلى أحد يودعه للمرة الأولى منذ طفولته.

مشى في شوارع الحساوي على غير هدى حتى أنهكه السير، وشعر للمرة الأولى منذ سنين أن صحراء نفسه القاحلة تغشاها سحب ممطرة ترعد في صدره، جلس وحيدا على الأرض يفكر في مصيره، تذكر شيئاً من الماضي الذي لا يعرفه أحد الآن سواه قبل أن ينسى كل شيء.

من يعرف أبو النواس يبتعد عنه خشية بطشه فهو لا يتوانى عن اذلال أي مخلوق يحاول أن ينازعه أي شيء يريده، جلس أمام أحد أزقة الحساوي القديمة التي ولد وتربى فيها، كل شيء لم يعد على حاله فقد اكتسى بالبؤس من الإهمال، المباني القديمة الآيلة للسقوط والبشر الذين يعلوا وجوههم القهر. لم تدفعه رائحة الفقر التي تعم المكان نحو الهرب إلى الحساوي الجديدة، لأول مرة في حياته يستطيع تقبل هذه الرائحة العابثة المجنونة، بات بمقدوره للحظات أن يألف وجوه الناس، ظنه من لا يعرفه أنه عابر سبيل.

كان يجلس بلا حراك في القاع حيث الجميع وهو الذي دأب الجلوس على أعلى قمة، في هذه اللحظة لم يعد يهمه ان كانت السلطة تخلت عنه أم هو الذي تخلى عنها، لكنه مهموم أكثر بما يشعر به من ضياع يحاصر كل خلية في جسده حتى حجب عقله عن التفكير وسكن لسانه تحت قبة فمه الكبير دون حراك وهو الذي ملأ الدنيا ضجيجا بأفكاره وأوامره. مظهره الذي اعتراه التغيير بعض الشيء واعتلاه التراب شيئاً قليلاً وحجب التعب بريق عيناه الحاد جذب إليه طفلاً يحمل قطعة خبر يابسة وكوب من الشاي لهذا الغريب الصامت. الطفل لم يمنعه حالة البؤس التي يعيشها من الشعور بأن هذا الغريب ربما يكون أحوج منه لما في يده، رأى الطفل علامات الجوع التي تبدو على هذا الغريب الصامت حدثت نفس الصغير البريئة ذاته الصغيرة فاستجاب لها قاطعاً مسافة طويلة بخطوات قصيرة نحو رجل يرى أن هؤلاء الناس ما هم الا عالة على الحساوي ومكانهم الطبيعي اما بطن المختبرات المركزية حيث الابحاث تجرى لتحويلهم إلى حيوانات أو في بطن المفترسات الوطنية التي لا تشبع إطلاقاً. الصبي البريء لا يعلم كل ذلك فهو مجرد صفحة بيضاء تكتب فيها الحساوي ما تشاء، بمجرد وصول الصبي إلى حيث يجلس أبي النواس تفحص وجهه الكبير بينما الأخير يتفحص وجهه الصغير كأنهما الزمن والزمان أو الماضي والمستقبل يلتقيان في لحظة الحاضر العابرة أو أنهما الروح والنفس في مواجهة بعضهما، كل منهما في عالمه هي لحظة نادرة الحدوث في كون شاسع تحركه الطاقة المظلمة إلى شيء ما ربما تكون حافته. تعبت يد الصبي الصغيرة الممدودة من حملها الثقيل بينما العجوز الصامت لم يرى سوى وجه الصبي المليء بالبراءة والنقاء وهما شيئان يود لو وجدتهما في قلب قصور الحساوي وليس في شوارعها القديمة، الصبي كلت يديه من حملها الممدودة به بينما العجوز في دهشته من البراءة والنقاء في وجه الصبي ومع ذلك كله

فلم يتحرك لذلك شيء بداخله سوى كلمات قالها دون صوت في صدره العميق:

— يا له من عالم عاطفته في عينيه وعقله في أذنيه.

الصبي تعب من الوقوف ممدود اليدين فوضع كوب الشاي على الأرض أمام أبو النواس وعليه قطعة الخبر اليابسة وذهب في هدوء كما جاء يقطع المسافة الطويلة بخطواته الصغيرة راجعا إلى حيث كان.

كل ذلك لم يؤثر في أبي النواس إطلاقاً فهو نسي أي شيء يربطه بالمشاعر الإنسانية منذ زمن بعيد، هو فقط يشعر للمرة الاولى أنه غريب لا يملك شيئاً على الإطلاق هذا ما يشعر به في هذه اللحظة، هذا الشعور يملكه فهو الذي ظل عقود من عمره يبني عالمه الخاص الحصين كي لا يتعرض لغزوات الخيانة مجدداً، لكنه كلما أنفق من وقت وجهد ومال ضربته الخيانة بذيلها المرة تلو المرة آخرها ما تعرض له من مساعديه بتدبير من الرئيس الشاب، وامس في قصره. ظلت الافكار والاسئلة تتصارع في نفسه كمجموعة من الأسود الجائعة تتصارع مع جاموس وحشي وحيد طمعا في جعله وليمة لها لكن الأسود بضاوتها لم تفلح في ارغام الجاموس الوحيد على الخضوع والاذعان للموت التي تسوقه بأفواهها إليه.

ظلت عينا أبو النواس حائرة بين وجوه الناس والمباني القديمة المتراسة على جانبي الزقاق الضيق حتى وقعت على مشهد نحلة تسير وسط تراب الزقاق حائرة وحيدة تجر جناحيها خلفها يظهر عليها التعب والارهاق الشديدين، اقشعر جسده لما رأى النحلة تسير نحوه في خط مستقيم فهو يخشى حبوب اللقاح التي تحملها في ساقبها لأنه يعاني حساسية الصدر والفصل هو الربيع، لكنه أيضاً تساءل عن سبب

وجودها هنا تحديداً، وأجاب نفسه بسرعة: ربما ضلت طريق عودتها إلى الخلية بعد تلقح حقل زهور في مكان ما من الحساوي، لتقع في طريقي.

هو يخاف لساعات النحل منذ صغره، لكنه يخشاها بشدة الآن لأنه يعلم جيداً أن بطش الياثس ربما يكون قاتلاً لأنه ليس لديه ما يخسره. دفعه شعوره بالخوف إلى محاولة الابتعاد عنها وهو يبحث عن حجر يضربها به إن اقتربت منه قيد أنملة أخرى، عندما شعر بأنه بدأ يمتلك زمام المبادرة وأن سلاحه فتاك يمكنه قتل النحلة بسهولة استقر جسده من جديد على الأرض وبدأ يراقب النحلة التي لم يوقفها كل الضجيج الذي أحدثه هو عن التقدم، كما لم تخف من الحجر المصوب نحو جسدها الهزيل ولم تحاول حماية نفسها بجناحيها الضعيفين، لكنها كانت كلما اقتربت منه ابتعدت عن مساره حتى وصلت إلى حجر عال بمحاذاته وبقت هناك تصارع من أجل الصعود إلى أعلى نقطة من الحجر، ولم يمنعها فشلها المتكرر وسقوطها المتكرر إلى أسفل الحجر كلما اقتربت من بلوغ هدفها أن تحاول مجدداً في كل مرة، إصرارها على بلوغ هدفها جذب انتباهه وطرده الخوف من نفسه فألقى الحجر وظل يراقبها باهتمام بالغ يريد معرفة ماذا تريد هذه النحلة؟.

عجبه كان في ازدياد مع كل مرة تفشل فيها النحلة ثم تعاود المحاولة دون توقف، حتى بلغت في إحدى محاولاتها المتكررة والعديدة قمة الحجر، وعندها ضربت الهواء بجناحيها اللذان بدا لهما أنهما ضعيفان ولكنهما لم يكونا كذلك أبداً، فارتفعت النحلة في زاوية حادة مستمرة في التحليق عالياً نحو غصن شجرة في الجهة المقابلة من الزقاق وما لبثت أن اختفت بين أغصانها عن بصره.

مشهد النحلة وهي تبلغ هدفها هزه من أعماقه بشدة، أيقظ بداخله شغف قديم متجدد كان يريد أن يخفت عندما صفعته الخيانة من جديد، قرر في هذه اللحظة أن يعود ولكن بقوة وحزم يكفيان لأن ينقذ ما تبقى من عالمه الخاص.

فجأة توقف عن التفكير في كل ما يدور من حوله حتى في قرار عودته إلى القمة التي كان مازال عليها حتى تلك اللحظة فلم يعلم مخلوق بما حدث ولن يعلم أحد إطلاقاً، شعر بالصفاء النفسي وتوقف الضجيج داخل رأسه وانقشع الضباب الكثيف الذي كان يغلف أفكاره قبل أن يدخل الحصاوي القديمة، لم تهاجمه تلك الافكار المتناقضة التي دأبت على العبث بعقله، هو يشعر بوضوح على الرغم من أن ما يشعر به الان هو الضياع لكنه شعور واضح لا يخالطه الضباب، شعر بالريبة وبدأ دماغه في العمل بشكل حاد في اتجاه المؤامرة وأن هناك من يحاول السيطرة عليه مغناطيسياً فقرر العودة إلى المختبرات لإجراء تجربة واضحة المعالم على ذلك الطرح رغم غرابته بالنسبة إليه.

اعتدل واقفاً على الفور وحاول محو أثر التراب الذي علق بسرواله الاسود لكنه لم يفلح، ذلك لم يمنعه من التوجه نحو المختبرات وهناك عاد الضباب من جديد لمخالطة كل مشاعره وبدأت في اللحظة ذاتها الافكار المتناقضة في مهاجمته بشراسة، فلم يعد شعوره بالضياع واضحاً كما كان منذ دقائق قليلة، وبدأت معلومات وأفكار ومشاعر أخرى في الظهور على موجات متوالية، تذكر في وسط ذلك كله كلمات " الرجل الفضائي" أن المختبرات تستقبل بثاً فضائياً مستمراً، صرخ أبو النواس بأعلى صوته منادياً نائبه بأن يأتيه بالرجل الفضائي الآن.

[١٤]

مازال أبو النواس منذ حضوره للمكتب يتردد بين النافذة المطلة على قبر إبراهيم أبي النصر وناصر الرشيد وكرسيه الذي لا يستقر عليه لبرهة حتى ينتصب واقفاً ليعود إلى مكانه بجوار النافذة، لم يستطع أي من التقارير التي ملأت سطح مكتبه أن توقف ذلك التوتر كما لم تستطع اسكات صوته الداخلي عن التدفق في نفسه مدفوعاً بشغف قديم. ظل على حاله تلك يتأمل القبر حتى جاءه صوت الرجل الفضائي ملقياً عليه التحية التي لم يعتد هو اجابتها، نظر الرجلان إلى بعضهما في شغف كل منهما يبدأ الحديث في نفس اللحظة وبنفس العبارة: كنت أريد منك!، ثم يتوقف كلاهما عن الكلام مشيحاً نظره عن الآخر مفسحاً له المجال ليكمل ومع ذلك يتكرر الأمر من جديد مرة تلو أخرى، حتى صرخ أبو النواس في الرجل الفضائي: اصمت، فما كان من الرجل الفضائي الا أن رفع يديه كناية عن التسليم والصمت.

ليبدأ أبو النواس طرح ما يدور في رأسه بكلمات واضحة جامدة تشي بكبرياء صاحبها، وكلما انتهى من استعراض فكرة وضع فاصلاً عبارة عن جملة اعتراضية تشبه إلى حد بعيد الفاصل الإعلاني في البرامج الحوارية يتم اقحامه دون سبب، "أنا لا أحب الغباء!!".

مع أن كلماته كانت واضحة الا أن فكرته كان يغلفها بعض الضباب المنبعث من أعماقه الرطبة بالشك والخوف من الخيانة، ما زاد من حيرة الرجل الفضائي الذي علم أنها فرصته الاخيرة ليثبت أنه

كان على حق منذ البداية وأن هؤلاء الحمقى كما يسميهم تندروا على أفكاره والآن يحتاجون إليه من أجلها. انتظر حتى أنهى أبو النواس حديثه الطويل غير المفهوم في الواقع ولكنه أبدى احتراماً غير عادي على غير عادته لما سمعه للتو، وحاول وضع ملخص يعكس حاجته هو وليس فكرة أبو النواس في كلمات يفهم منها أنه بلغ ما يريد أبو النواس بالضبط وهو ما يمكن جمعه في كلمة واحدة " الخداع"، هو يرى أنها كخدع الكيمياء التي يستعملها السحرة الصغار، يعلم جيداً أن مشروع حياته يتوقف على ما سيقوله الآن فصمت برهة لينتقي كلماته ثم قال:

— ما فهمته أنك تصدق ما أقوله حول الغزو الفضائي للحصاوي؟

فعلق أبو النواس بتهكم واضح:

— هل قلت غير ذلك للتو؟!

فاستكمل الرجل الفضائي حديثه في هدوء:

— الحل العلمي يقول أن نعزل الحصاوي عن العالم تماماً لنحمي أنفسنا من هذا الغزو القريب، ونكون أصحاب قرارنا.

لامست الكلمات شيء ما بداخل أبو النواس فبدأ يتفاعل معها بشكل أكثر جدية، وهو يشير إلى الرجل الفضائي بأن يجلس أمامه ويكمل ما يقوله، **ليستطرد الأخير:**

— أعني أن نبنّي جدران عالية من الفولاذ حول الحصاوي تنتصب فوقها قبة من الفولاذ هذا من الخارج أما من الداخل فسنبنّي جدران مماثلة من الزجاج المقاوم وقبة مماثلة أيضاً من نفس المادة فيصبح لدينا سياجان قويان للدفاع عنا، وهذان السياجان بهما أبواب سرية للدخول والخروج كما أنها تتحرك بشكل هيدروليكي مركزي يكون تحت سيطرتك دون غيرك.

كان أبو النّوّاس ولأول مرة غارق في حلم يقظة عميق شاهد فيه الحصاوي محمية من كل شيء وبيده هو فقط نجاتها من خلال التحكم في السياج الفولاذي والآخر الزجاجي. لمح الرجل الفضائي ذلك فأكمل شرحه:

— هذان السياجان يمكنان من تفريغ الحصاوي من أي شيء عن طريق تقنيات كثيرة يمكن التحدث بشأنها خلال مراحل الاعداد للمشروع

فقاطعه أبو النّوّاس قائلاً بصرامة:

— ماذا قلت للتو؟!

فكر الرجل الفضائي ما قاله، ليقاطعه أبو النّوّاس مجدداً:

— سمعت ذلك أريد منك توضيحاً أكثر هذا ما قصدته

الرجل الفضائي لم يكن لديه فكرة عما قاله عن تفريغ الحساوي فهي مجرد كلمات يريد منها الوصول إلى ما يريد، لكنه وقع في فخها وعليه ابتكار ايضاح ملائم وإلا ضاع كل شيء، تسارعت دقات قلبه وبدأت قطرات دقيقة من العرق في الخروج من مسام جلده مدفوعة بالتوتر الذي يشعر به، لكنه وجد كلمات أخرى ربما تكون توضيحاً يقبله أبو النواس فقالها دون تفكير:

— سأضرب لك مثلاً بسيطاً يمكننا تفريغ الحساوي من الهواء تماماً والعمل على توصيل الهواء إلى المنازل نظير رسوم تقررها الدولة، من يملك هذه الرسوم يمكنه الحصول على أي كمية من الهواء ومن ليس لديه الرسوم لا يحصل عليها، وبهذا يمكن للمشروع خلق طبقة اجتماعية جديدة في هذا البلد القديم تسمى بطبقة "ملاك الهواء"، وفي الوقت ذاته نتخلص من الفقراء جدا دون عناء يذكر لأنهم سيموتون بطريقة سهلة وعادلة فهم لا يملكون رسوم الهواء!

انتبه أبو النواس لهذه الكلمات التي جعلت عيناه تلمعان بحدة، فكلمة تحكم وحكومة وسيطرة تدخل على نفسه دائماً نشوى قوة، فنظر إلى عيني الرجل الفضائي الجالس أمامه وهو يحاول تخيل هذا الأمر بقوله:

— معنى كلماتك أننا سنبيع الهواء للناس وان ذلك معناه فرص عمل جديدة وفرص دخل واعدة لهذه البلاد الفقيرة، ما يعني حياة رائعة للأجيال المقبلة، هل ما فهمته دقيق؟

فأجابه الرجل الفضائي:

— بالضبط هذا ما قصدته، علاوة على أن المشروع نفسه يستغرق سنوات طويلة لإنجازه كما يستوعب هذا المشروع جميع العاطلين عن العمل في الحساوي.

فعلق أبو النواس بدهشة:

— قلت جميع العاطلين عن العمل؟

"نعم"، قالها الرجل الفضائي وهو متعجب من السؤال.

"أنت عبقرى يا رجل، حللت جميع مشاكل الحساوي في فكرة واحدة"، قالها أبو النواس وهو يهرول ناحية سترته المعلقة بين كرسي مكتبه والنافذة، ودس يده في جيبها ليخرج هاتفه المحمول ويعبث به وفرحة عارمة تدب في كل أوصاله وصاح بعدما وضع الهاتف على أذنه:

— وجدت حل جميع مشاكل الحساوي للقرن المقبل، أريد اجتماع مع الرئيس وأعضاء الحكومة فوراً.

كان الاجتماع صاخبا نتيجة الأفكار المجنونة التي طرحها أبو النواس على الجميع وكان يهاجم بضراوة كل من انتقد أفكاره، ترسخ لدى الجميع أنه لن يثني هذا العجوز عن عزمه أي شيء مهما كبر، كل ذلك والرئيس صامت يتابع الأمر من كرسيه وكأنه لا يعنيه أي شيء مما سمعه الليلة، حتى أنه لم يطلب الكلمة وكلما طلب منه الكلام رفض بإيماءة من رأسه.

ولكنه بعد هذا الصمت الذي ظنه الجميع لن ينتهي قطع الرئيس حديث الجميع موجهها كلماته إلى أبي النواس بشكل قاطع وحاد يكاد يكون اتهام:

— هل انتهيت من تحويل الشعب إلى دجاج يا كبير العلماء، أم أنك فقط تريد أن تغير العالم من حولك طبقاً لرؤيتك أنت؟!!

فأجابه أبو النواس في دهشة تؤكد عدم توقعه للسؤال، ولكنه ارتجل كعادته الإجابة:

— التجارب مستمرة على هذا الأمر فلا تقلق.

فأجابه الرئيس بينما يهم بالوقوف على قدميه ويرجع كرسيه إلى الخلف بعيداً عن طاولة الاجتماع في حركة متزامنة ويشير بإصبعه إلى وجه أبو النواس مباشرة:

— عندما تنتهي من تحويل الشعب إلى دجاج ارجع لي وسوف أوقع على بداية هذا المشروع الأخرق الذي عرضته الليلة.

قالها الرئيس وهو يعطي ظهره للجميع في خطوات رتيبة ويخرج من باب القاعة في هدوء دون أن يعطي لأحد الفرصة ليقفه.

وظل أبو النواس في حالة العجب التي انتابته منذ أن سمع سؤال الرئيس عن شعب الدجاج، وكأنه كان قد نسي الأمر تماماً ولم يعد يفكر فيه، ونظر إلى الأوراق المتناثرة أمامه على الطاولة وهو يمد يده إلى كأس الماء الموضوع بقربه ليتناوله ثم يرفعه في حركة متثاقلة إلى فمه الكبير الواسع وبعد أن فرغ من شربه كاملاً وضعه بنفس

الطريقة ثم جمع ورقه المتناثر ثم غادر الاجتماع الذي دعا له دون أن ينظر خلفه لمن يناديه، لا لأنه لا يريد ذلك ولكنه كان مستغرقاً فيما سمعه من الرئيس للتو، يعاتب نفسه كيف ينسى أمراً كهذا وكيف يترك هذا الأخرق أن ينهي الاجتماع بهذه الطريقة؟!، وكيف يجعله يضع شروطاً لشيء يريده أبو النواس؟! أسئلة كثيرة كانت تضج في رأسه تبحث عن إجابة عندما وصل إلى باب قصره المنيف المليء بالموت والموتى وقصص الخيانة، لم يجد بهيرة تنتظره على الأريكة وسط البهو ولكنها كانت تنتظره في صندوق من الزجاج إلى جوار زوجته، لاحظ أن مساحة غرفته الحصينة لم تتأثر بهذا الصندوق ولكن مساحة صدره هي التي ضاقت به، نفسه الفولاذية لانت لهذا المشهد الذي عليه أن يعتاده، انحنى على الصندوق ووضع جبهته العريضة عليه وكأنه يريد قول شيء ما لأخته أراد أن لا يسمعه أحد سواها: — ان الغبي يحتاج فقط إلى اربعين عاماً لكي يفهم أن العالم مكانا سيئ وأن الحياة شيء ممل وأن البشر هم أسوأ ما في الكون.

ثم رفع رأسه وتوجه ناحيه حاسوبه الذي يعمل على الدوام وجلس خلفه وبدأ في كتابة رسالة قصيرة إلى فريق العلماء في المختبرات الوطنية بأهمية التواجد جميعاً في غرفة الاجتماعات بحلول الساعة والنصف صباحاً للبدء الفوري في إجراءات تحويل شعب الحساوي إلى دجاجات بحلول ليل الحساوي المقبل ولن تقبل أي مبررات لعدم القيام بذلك.

ثم تناول حبة من المنوم الخاص به وتوجه إلى سريره بعدما ألقى تحية المساء بصوت خافت على بهيرة وزوجته ناريمان وألقى بجسده المتعب على السرير.

لم يتعافى ذكي إلى الآن نهائياً من وعكة المشاعر السلبية التي ضربته كالإعصار لكنه مازال يكابر زاعماً أنه الأكثر تطوراً وتقدماً وأنه مستقبل البشر وليس العكس، ومع أنه أوقف الزمن لكنه يلجأ إلى حيله عندما يضطر لذلك فهو يطمئن نفسه أنه هو المستقبل الذي ينظر إليه على أنه مجرد حيلة من حيل الزمن، لكن هناك شيء ما بداخله يوسوس له باستمرار أن الأمر ليس على النحو الذي فهمه هو ومعظم البشر منذ البداية وأن الزمن خطي مستمر في الصعود أو الهبوط في وتيرة واحدة رتيبة مملة، ولكن الصوت الذي يوسوس له أكد له ألف مرة أن الشكل الهندسي والمسيطر في هذا الكون هو الدائرة وأن كل شيء خلق على تلك الهيئة الملتفة حول ذاتها بإحكام مطلق كحبل مشنقة متسلط يأكل كل روح تقترب منه حتى روح الجلال.

رفض ذكي هذا الزعم بشدة ودخل في سجال علمي طويل استغرق منه فترة طويلة يحاول فيها تفنيد ذلك ولكنه في كل مرة يصطدم بمنطق علمي رصين يمنعه من المضي في زعمه.

هو يصبر على أن الزمن ما هو الا شريط متحرك في اتجاه خطي نحو شيء ما، هو مازال يبحث عنه ولا يجده على الرغم من أنه يعرفه، كلمة تنطقها منذ ميلادك ولكنك في لحظة ما تريد هذه الكلمة المحفورة على لسانك من كثرة نطقها ولكنك لا تجدها، ظل يجتهد في تذكرها دون جدوى كأن شيء ما طمسها لهدف ما غير مفهوم، ما جعله يطرح سؤالاً كبير يعمل من أجل الإجابة عليه كعادته جاء فيه:

" هل ينتهي الزمان والمكان؟"

وكتب في تعليقه على السؤال:

"أعتقد أنه لا مطلق في الكون ولكن المطلق يكمن خارجه في اللا مكان واللا زمن وبالطبع اللا زمان، ولكن هل للفناء نهاية ككل شيء في هذا الكون؟".

وأكمل تعليقه:

"فكرتي عن ذلك أن التكوين الكوني برمته ينتهي عند نقطة معينة خارج هذا التكوين، وللأسف العلم لا يصل إلى هناك لأن العلم خلق داخل هذا التكوين المحكم".

كان ذكي قد أجرى الكثير من الابحاث عن مفهوم العلم وخرج بنتائج وضعها ضمن ملاحظاته وقد عاد إليها محاولاً جمع قطع الاحجية ربما أسعفته في مسعاه لتفنيد زعم الدائرة. جاء في تلك الملاحظات:

"العلم الذي نعرفه وهم نسبي له سند ويصبه الفناء كأى شيء، أما العلم المطلق فهو خارج التكوين الكوني وهو المقصود في الأساس بمصطلح العلم".

استوقفته كلماته "وهم نسبي له سند"، وبدأ يركز تفكيره عليها ويردها بلا صوت، ردها أنت معه من خلف صفحات كتابك الآن " العلم وهم نسبي له سند" ربما يصله الصوت، ولكن كيف يكون للوهم

سند يثبتته؟!، الأمر برمته يدفع ذكي إلى الجنون هو على وشك اكتشاف شيء ما داخل كل هذا الركام من الكلمات المبهمة المغلقة على سر ما يريد فك شفرته، هو لا يعلم من أين يبدأ؟، فقط يريد أن يقتحم هذه الكلمات ربما تخر أمام أقدامه غير الموجودة، أعادها مجدداً ثم أعادها ثم أعادها ثم توقف للحظات كأنها لن تنتهي مثل الزمن وفجأة بدأ يكتب عبارات أشد غرابة من كلماته المبهمة عن العلم جاء فيها:

"ماذا لو كان الأمر برمته فكرة تذكرها أحدهم واستدعى بها نقطة من الماضي فيها كل ما يدور حالياً لي؟!، مجرد طيف لحدث مر منذ مئات أو ربما آلاف السنين!!".

فصاح به الوسواس من جديد:

"هون عليك أنت تسير في الطريق الخاطئ وتنهك قواك دون فائدة، فقط اصمت تماماً وحاول استيعاب ما سأقوله لك وبعدها اعتقد ما شئت".

لم يجد ذكي بدأ من الإذعان للصوت هذه المرة.

ليستكمل الصوت حديثه:

"الدائرة هي الحل لكل معضلاتك عن الكون والزمن والزمان والمكان، ارسم خطاً أفقياً وسمه الزمن ثم ارسم خطاً متعامداً عليه عند نهاية الاول وأطلق عليه المكان وحدد نقطة التقاء الخطان ثم ارسم دائرة قطرها خط الزمن تمر بنقطة التقاء خط الزمن مع خط المكان

وأطلق على هذه النقطة " البدء ". الدائرة وما فيها أطلق عليها الفناء، وعند مركز الدائرة ارسم خط مواز لخط المكان وأكتب عند نقطة تقاطعه مع الدائرة إلى أعلى كلمة "قمة" ثم أكتب عند نقطة تقاطع الخط مع الدائرة إلى أسفل كلمة " قاع"، الشكل الذي ظهر لديك هو تكوين الكون.

وأكمل الصوت حديثه قائلاً:

"أنظر إلى القمة ستجدها انعكاس للقاع مع فارق أن القمة هي بداية حتمية للهبوط أما القاع فيملك فرص الصعود ولكنهما معا يؤديان إلى نهاية واحدة وهي الفناء. القاع لديه أمل وهمي، أي وهم الأمل في الصعود والقمة لديها يأس وهمي، أي وهم اليأس نتيجة الخوف من الهبوط، هنا تجد حالتين الأمل واليأس وهما في الأساس وهما لأنهما يعيشان في قلب الفناء، وفي نفس الوقت هناك فارق بين من يعيش في القمة ومن يعاني في القاع".

هنا بدأ ذكي في الكتابة بسرعة كبيرة ليستوقف الصوت:

— لكن ما هو الفناء؟ هل هو التحول؟

لم يأبه الصوت لسؤال ذكي واستكمل قائلاً:

"القمة لا يمكنها الصعود أبعد مما هي عليه فهناك دائماً حد ونهاية عظمى تحد طموح الصعود، وكذلك الهبوط له نهاية تحد من يأس الهبوط".

فأستكمل ذكي الكتابة بسرعة مجدداً:

"كل ما في هذا التكوين له انعكاس خارج نقطة البدء على خط الزمن لكن هل التكوين ذاته له ذات الانعكاس؟، بمعنى هل الكون له أصل في عالم اللا زمن؟، وهل الزمن والزمان والمكان لهم انعكاس على مرآة الأبد؟".

ولم ينتظر ذكي إجابة الصوت واستمر في كتابة ملاحظاته على ما طرحه الصوت:

"اعتقادي الحالي الذي ربما أغيره نظرا لنتائج علمية جديدة هو أن الزمان والمكان بشكلهما الحالي ليس لهما انعكاس لسبب بسيط أنهما ظهرا بعد الانفجار الكبير لشيء غير موجود أو بمعنى أدق ظهرا بعد انفجار اللاشيء محدثا الشيء وهذا نفهمه بالعقل ويمكن ملاحظة أثره على أجساد البشر كونها صنعت من مادة اللاشيء".

فصرخ الصوت قائلاً:

"توقف يا غبي لقد شوهدت كل ما أردت قوله، اسمع يا أصم، نحن جميعاً نعيش في متاهة الزمن حيث الماضي هو مستقبل المستقبل، في حين يعمل المستقبل كمستقبل للماضي، انها دوامة الزمن التي لا تنتهي لمن وسطها فليس لها بداية ولا نهاية ولا وسط هي خط منحني التحم أوله بآخره، من الممكن أن تميزه علامات ما ولكنه يشبه أكثر ما يشبه غشاء ممتلئ بمادة الفناء التي تعيد إنتاج ذاتها باستمرار مطلق، النظام برمته يسير إلى نقطة لا يمكن تجاوزها يتلاشى عندها كل شيء كأنه لم يكن ثم يتحول إلى شيء آخر ملامحه معروفة لكنه هو في ذاته مازال غير معروف. أفهمت أيها الآلة الغبية".

الكلمات التي سمعها ذكي أعادت له الرجفة التي مازال يعاني من آثارها شعر أنه لا يتحمل ثقل هذا المنطق الجديد المفاجئ الذي هاجمه دون انذار هو اعتاد على استنباط المعلومات والنتائج حتى تتكشف الحقائق رويداً رويداً أمامه لا أن يقذف هو بحقائق أخرى غير التي يفهمها بهذا الشكل المفاجئ والفظ في الآن عينه.

تمالك نفسه بصعوبة وعاد إلى التفكير والكتابة من جديد:

"الزمان يمكنني فهمه على أنه مجال قوي يشبه في فعله المجال المغناطيسي، ويتولد هذا الزمان بفعل الحركة والطاقة وإذا توقفت الحركة لسبب ما مات الزمان على الفور".

فطرح الصوت سؤالاً في تهكم واضح على ما سمعه:

"وكيف نولد الزمان من الزمن أيها الأحمق؟"

فكتب ذكي مجيباً:

"يولد الزمان من حركة الزمن، وهذا أشبه بالإنسان الذي يأتي من حيوان منوي وبويضة وهما موجودان باستمرار في كل إنسان يولد".

وقبل أن ينتبه الصوت باغته ذكي بسؤال:

"ماذا تعرف عن العدم؟ وما علاقته بالفناء؟".

صمت الصوت طويلاً ولم يجب بأي شيء وكأنه في حالة من الصدمة فالسؤال على ما يبدو أكبر من طاقته على الإجابة. فأعاد ذكي كتابة نتائج قديمة عن هذا الموضوع جاء فيها:

"العدم هو النقطة التي لا نعلم ما قبلها وما بعدها ولكن المعلوم عنها هو ذاتها، والفناء هو كتلة العدم أو بمعنى آخر الفناء هو مادة العدم".

ثم علق ذكي على ذلك كله بعبارات واضحة:

"أنفق معك في نقطة واحدة أوردتها في منطقك دون أن تشير إليها وهي أن الكون يعيش على الحركة فإذا توقفت الحركة مات الكون لأن الحركة تحافظ على بقاء الطاقة التي تتزايد مع مرور الزمن".

وأردف ذكي:

"كنت أظنك على علم أن الفناء والعدم كلاهما رغبة يأكلها ويغذيها زحف الزمن".

فأجابته الوسواس:

"وكنت أظنك ستسألني أين يوجد الزمان؟".

انتبه ذكي للسؤال وبدأ في التفكير في إجابته طويلاً ثم صمت ولم يعلق، فاستكمل الوسواس كلماته مجيباً:

"الزمان غشاء كوني ولد بفضل حركة الزمن وهو موجود في كل شيء يفصل كل شيء عن أجزاء ذاته التي تنفصل بفعل سهم الزمن، هذا الغشاء يمنعنا جميعاً من رؤية الحقيقة".

ذكي لم يجد لحسم هذا السجال الا عبارة واحدة جاء فيها:

"يا صديقي النجاح وجهة نظر ايجابية عن العالم على الرغم من كل الاحباطات والاختافات التي تحيط بك".

دخل أبو النواس المختبرات المركزية وهو عازم ألا يخرج منها أو أي من فريقه إلا بعد انجاز تحويل الشعب إلى دجاج مهما كلفهم ذلك، كان الجميع في انتظاره كما أمر في رسالته، الكل متأهب الكل جمع كل ما لديه من أفكار ممكنة التطبيق من وجهة نظره على هذا الشعب المسكين الذي عليه دفع فاتورة التغيير من شخصيته وهويته حتى فقد كل معنى لهذه الأشياء فلم يعد لديه ما يمت إلى كلمة شخصية بصلة كما لا يعلم أحد في هذه البلاد شيئاً يذكره بمعنى كلمة الهوية.

تفحص أبو النواس وجوه الجميع قبل أن يجلس على كرسيه ويعلن بداية وضع خطة نهائية لتحويل الشعب إلى دجاج، وقبل أن ينطق أحد قال بحزم وشدة:

— اليوم سينتهي كل شيء ولا أريد أي عذر

نظر أعضاء الفريق كل أي وجه من بجانبه نظرة لا تنبئ عن شيء إطلاقاً.

قطع بهي السيد صمت الجميع قائلاً:

— نحن نحول البشر إلى حيوانات لا عقل لها

فقاطعه أبو النواس بشدة:

— ومن قال لك أن الحيوانات لا عقل لها؟، هذه عنصرية البشر يرون أنهم أسياد هذا الكون دون غيرهم من المخلوقات.

فتدخل ماجد الأمير الذي التحق بالمختبرات لمكافحة الكائنات الفضائية قائلاً:

— أتعجب من أن هذا الكلام يخرج من فمك أنت

فأجابه بلا تفكير أبو النواس:

— ولما العجب؟

فعلق ماجد الامير على ما قاله:

— لأنك أنت صاحب تلك الافكار

فقاطعه أبو النواس بحزم هذه المرة:

— أنا لم أقل يوماً أن الحيوانات لا عقل لها، أنا أساهم في بناء الحصاوي بما أقوم به. تحويل الشعب إلى حيوانات أمر ضروري لأن الحيوانات التي تقول عنها: لا عقل لها، اختارت عند بدء الخلقية ألا تختار متخطية ما وقع فيه البشر، اختارها هذا لا يعني سوى أنها تملك عقلاً أوسع وأكبر مما لدى الإنسان، لا بل عندي ما هو أشد، ألم يأتي الهدد سليمان بنياً بلقيس وقومها، وحمله سليمان رسالة لها. فكيف لا يكون لديه عقل وفعل كل ذلك؟!

فأجابه ماجد الأمير في دهشة:

— لم أفكر من قبل في هذه الأمور على هذا النحو، لأنني وجودي ولا أو من بالغيب

فضحك أبو النواس قبل أن يقول:

— تؤمن بالوجودية ولا تؤمن بالغيب وكل ما تقوله لا دليل عليه سوى الغيب؟!!

قطع الدكتور بهاء مذكور هذا السجال بينهما قائلاً:

— التاريخ هو انعكاس ما نفعل على مرآة الزمن، فكلما كان ما نفعل بعيداً عن المرأة تشوه انعكاسه، وأيضاً عندما تفقد المرأة لمعانها أو استوائها تشوهت الصورة أيضاً.

فأجابه أبو النواس بتهكم واضح:

— الزمن والتاريخ أفكار غازية ممتزجة بمواد فلسفية لا يمكنك ضبطها ومع ذلك تسوق على أنها مواد صلبة شديدة الثبات، ولكن ما علاقة ذلك بما نحن فيه؟

فأجابه مذكور بعد تفكير:

— كل شيء يتم معالجته على مستوى اللغة سواء على المستوى الفردي أو الجمعي، ولذا من يتحكم في اللغة يتحكم في الإنسان والعالم من حوله.

فأشار أبو النواس بتعجب إلى بهاء مذكور وقد تغيرت تعبيرات وجهه المنتفخ وقال:

_____ هذا كلام فلسفي لا يمكن الاعتماد عليه في بناء الدولة الجديدة
في الحساوي.

فعلق مدكور:

_____ الجبل شفته قطرة ماء صممت على المضي في طريقها إلى
الوادي.

فعلق أبو النواس معنفا إياه:

_____ هل من الممكن أن ترك الفلسفة والتحدث فيما جئنا جميعاً من أجله
اليوم؟!

فأجاب مدكور على الفور:

_____ أنا أرى أن الفلسفة هي أم العلوم، وعلى كل، ما أعنيه أن قرار
الحرب ذاته عبارة عن كلمات، وعندما تريد أن تغازل زوجتك أيضاً
تعالج الأمر في شكل لغوي يمكنك من الوصول إلى ما أردت.

رد أبو النواس في ضيق:

_____ وما علاقة محاضرة التربية الجنسية تلك بتحويل الشعب إلى
دجاج؟!

فأجاب مدكور بنفس الحماسة:

_____ اللغة فقط هي التي تمكننا من ذلك.

لم يخف أبو النواس عجبه وامتعاضه مما يسمع، لكنه علق قائلاً:

— المعنى الوحيد لكلامك أننا سنغير الشعب من حمير إلى دجاج
عبر اللغة؟! هل هذا معقول؟!

أجابه مذكور:

— ولما لا؟

فسأله أبو النواس:

— وكم يستغرق ذلك؟!

لم يجبه مذكور ولكنه استكمل حديثه قائلاً:

— سأضرب لك مثلاً. اذا كان مصطلح جبل يستدعي في ذهنك
صورة مساحة من الماء تمتد حتى الأفق.

فقاطعه أبو النواس صارخاً:

— يا مذكور هذا يدل على بحر وليس جبلاً!!

فابتسم مذكور وهو يجيبه:

— هذا ما قصدته منذ البداية، أن نغير المصطلحات على المستوى
اللغوي بقصد تغيير الواقع المادي الملموس، وعندما نقول أين الجبل
يشيروننا على البحر نكون قد وصلنا إلى المعادلة السحرية التي من
خلالها نستطيع أن نحولهم إلى ما نشاء وقتما نشاء.

ظل أبو النواس يحك ذقنه بيده بشدة ما يؤكد عدم قبوله لما سمع
فصرخ من جديد:

— ولكن هذا مستحيل في حالتنا، أنا أريد حلاً بيولوجياً ينفذ اليوم
وليس حلاً فلسفياً ينفذ على مدى القرن المقبل يا دكتور

فأجابه مذكور بثقة:

— الأمر لن يستغرق سوى بضع أيام

فتساءل الجميع في صوت واحد:

— كيف؟

فأجاب مذكور بصوت هادئ موجهاً حديثه لأبي النواس:

— كيف يمكنك أن ترفع العصاة السوداء التي كنا نعصب بها
عيون الناس ونجعلهم يشعروا بالحرية وفي الوقت ذاته لا يرون إلا ما
نرى ولا يسمعون إلا ما نريد منهم سماعه ولا يقولون إلا ما نريد منهم
قوله؟.

وعندما لم يتلق إجابة من الجالسين أمامه أجاب هو على السؤال:

— أن تكون كلماتنا هي كل ما لديهم، وأن نجعلهم يتوهمون أن
العصاة أزيلت وهي لم تبارح مكانها قط.

ثم أعقب مذكور ذلك بسؤال جديد، وهو يعلم أن أبو النواس لا يحب كثرة الأسئلة كونه يؤمن بأن العلم كله في سؤال واحد واجابته، ومع ذلك فعل:

— ولكن طبقاً لما تريده قل لي كيف سنظل نسيطر عليهم بكيماء التحكم، وأنت أعلم مني أن تأثيرها يتلاشى مع الوقت؟
فأجابه وعلامات الضيق التي طغت على تعبيرات وجهه أخذه في الحدة:

— ومن قال أننا سنظل نستخدم مضادات الاكتئاب والسيروتونين وغيرها، فقط نحن سنتحكم بمجموعة منهم والبقية حتما ستقلد.
لم يأبه مذكور بما حل بأبي النواس من ضيق وتغيرات اعترت وجهه الخبيث، ومضى في تساؤلاته:

— ومن يضمن لنا النتائج؟

ارتفع صوت أبو النواس وزمجر كأسد هائج وهو يجيبه:

— عندما أقول أنه سيحدث لا تسألني ومن يضمن، أنا فقط هنا المسئول والجميع ينفذ ما أقوله.

وفجأة هدأ كأنه تذكر شيئاً مهماً لا يحتمل التجاهل أو التأخير وبدأ في البحث بعينه عن هاتفه المحمول من حوله وبيديه في جيوبه، فهنف بهي السيد ها هو هاتفك.

التقطه أبو النواس بحركة عنيفة ألمته وعبث بأزراره في ضيق وما لبث أن قال لمحدثه بشدة:

— هل رفع حظر المرايا الذي أصدره الرئيس قبل سبعين عاماً، أم مازال سارياً؟

ثم صمت لحظات يستمع فيها للإجابة بتركيز شديد وهو يمسك شفاته وعيناه تدوران في رتابة وهذوء تتفحص سقف غرفة الاجتماعات ثم تتحول لتفحص كل ما حوله من وجوه وأوراق ونوافذ خشبية عتيقة وأثاث تبدو عليه أبهة عصر مضى وآخر يلاحقه.

ثم قطع أبو النواس ستائر الصمت التي غلفت جو المكان قائلاً:

— هذا ما أردته بالضبط، كثفوا حملاتكم على المنازل للتأكد من تطبيق هذا الحظر، واسألوا الشباب والأطفال عن أشكالهم ومن يعرف أي معلومة عن شكله اعتقلوه فوراً دون سؤال وليبقى في السجن حتى ينسى صورته أو يتظاهر بذلك، فالسجن كفيل بلجم لسانه.

ما أن أنهى أبو النواس مكالمته حتى باغت مدكور بسؤال:

— كيف سيمكن لنا السيطرة عليهم بلا كيمياء ولا عقاقير؟!

فأجابه مدكور بهدوء:

— يمكننا ذلك من خلال خطابات ونكات وشعارات غامضة نتحدث فيها عن كل شيء ولا شيء إطلاقاً، يفسرها كل واحد منهم على هواه نحن نراها على أنها مخرج لموقف ما وهم ينظرون إليها على أنها

وعد، أمل، مستقبل جديد، حرية.. الخ، ولكن تكون كل تلك التفسيرات ضمن اطار وضعناه نحن سلفا، ويجب أن ننسى هذا كله بمجرد قوله وفي المقابل هم لن ينسوه سيشغل حيز كبير من تفكيرهم وطموحاتهم، سيبنون قصورا من الرمال في خيالهم سنسكنها نحن دون علمهم، هذا يجعلهم عبيدا لنا ويحررنا نحن لنفكر في أشياء أخرى أكثر نفعا لنا من هذه التفاهات التي ملأت رؤوس الناس.

فعلق أبو النواس وهو يحاول سبر غور هذه الوصفة العجائبية الجديدة التي لم تستخدم من قبل في الحساوي للسيطرة على أهلها:

— ولكن هنا خطوة ناقصة، من يضمن تنفيذ كل ذلك كما نريد

فأجابه مذكور:

— القانون. نحن الآن سنضع كتيب الارشادات اللغوية الجديدة ونص قانون ولائحته التنفيذية، وبعد يومين نقدم مجموعة من الخارجين على هذا القانون للعدالة ويحكم عليهم بأن يكونوا طعاماً للمفترسات الوطنية هذا كل ما في الأمر.

فعلق أبو النواس في دهشة:

— هذا كل شيء؟

فأوماً مذكور برأسه دون أن يقول شيئا، ثم التفت إلى أبي النواس مجدداً وكأنه تذكر شيئا ما:

— أسف، أريد فقط أن أعرف ما الذي ذكرك بحظر المرايا في
الحصاوي؟

فرسم أبو النواس ابتسامة غيرت طبوغرافيا وجهه القديمة، وهو يقول:

— عندما نحظر شيئاً ما سيكون هو حديث الساعة على الرغم من
حظره أصلاً، ولكنهم سيتسألون في مجالسهم ومنازلهم ما الذي ذكرنا
بهذا الحظر وهو لم يرفع قط، وهذا يعطينا مساحة من الوقت نريدها
لإتمام ما نخطط له الآن، هذا لا يعدو عن كونه ستارا من الدخان
يغلف ما نقوم به ويبعده عن أعينهم إلى أن يتم ولا يكون أمامهم سوى
التعامل معه على أنه أمر واقع لا مفر منه، أتمنى أن تكون وصلت
إلى المغزى.

هز مذكور رأسه وهو يعلق ناظريه بأبي النواس، ثم بدأ في تدوين
ملحوظاته عما دار من حديث في الأوراق أمامه، فقطع تركيزه أبو
النواس قائلاً:

— متى يمكن وضع الخطة التنفيذية للتحول والبدء الفعلي؟

فأجابه مذكور:

— الأمر بدأ بالفعل منذ فترة، والقانون جاهز لتنفيذه والكتيب بالفعل
في منافذ التوزيع على الناس

حذق أبو النواس في رأس مذكور الفارغة من الشعر والتي تعكس
ضوء النافذة، ثم نظر لمن حوله ثم عاد للنظر إلى رأس مذكور الذي

بدا منهمكا في كتابة ملحوظاته، ثم صرخ صرخة اهتزت يد مدكور من شدتها وهو يقول:

— بدأت التنفيذ؟، والقانون جاهز؟، والكتيب في منافذ التوزيع؟، من أعطى أوامر كل هذا؟

فقال بهي السيد بصوت خفيض:

— كان ذلك جزء من بحث بدأ على الحساوي ولم يكن الغرض منه تحويل الشعب، ولكننا ناقشنا امكانية الاستفادة منه في ذلك وعرضنا الأمر عليك قبل الشروع في أي شيء.

فأجاب أبو النواس:

— على ما يبدو أنني في حاجة إلى عدد من التوابيت وعدد مماثل لها من القبور.

فحك كل من الجالسين وجوههم ونظروا إلى الأوراق بين أيديهم في حالة من التوتر.

أبو النواس لم يكن لديه متسع من الوقت ليعاقب فريقه كما لا يملك خيارا آخر لتحويل الشعب بهذه السرعة سوى ما سمعه للتو فقال وهو يغادر غرفة الاجتماعات متوجها إلى مكتبه:

— اليوم يبدأ تنفيذ هذه الخطة، وفي حال فشلها بنهاية هذا الاسبوع سيكون جميعكم في قبور مماثلة لقبري أبي النصر والرشيد، أعدكم بذلك.

كان وما زال أيمن وشريف كل منهما يقبع داخل سجنه الخاص، بينما يصارع الأول ستائر عينية المسدلة التي تحجب ضوء العالم عنه بقي الثاني في صمته راضيا بجسده سجنا بداخله، يفيض منه الدم عندما يزداد انفعاله. ولكن ذكي كان أسعد حالاً منهما فهو لا يملك سوى عقل الكتروني كبير ما جعله حراً داخل هذا العقل يستطيع أن يمشي بلا أقدام ويتحدث بلا لسان ويرى بلا عيون.

الآن أكثر ما يشغل دماغه الكبير هو البحث عن مصدر المشاعر والأحاسيس التي تأتيه عن الموت، هو يراها مزعجة ولا يعلم بالضبط لماذا الآن فقط تلطم عقله تلك المشاعر بهذه القوة والكثافة كما تلطم الامواج وجه صخرة على الشاطئ، فكرة الموت تلح عليه بقوة، وبنفس القوة أيضاً تلح عليه فكرة أن الموت له علاقة بكل ما يجري له ولمن حوله منذ الوهلة الأولى. وتمادى في شعوره حتى بلغ حد التفكير في أن الموت له علاقة بكل شيء في هذا الكون الفسيح الذي يراه في أفكاره وليست الحياة كما يدعي الكثير من البشر.

هو بالطبع خلاف البشر لا يخاف الموت لأنه ببساطة لا يملك روحاً ترفع ولا نفساً تزهق ولا جسداً يفنى ولا حبيب يفقد، فعلى ما يخاف اذا من الموت؟! هذا من وجهة نظره تفكيراً منطقياً في الأمر.

ذكي اختبر كيف يمكن أن تعيش سعيداً بلا قلب، لطالما أكد ذلك لنفسه ولرفيقه وحتى لصانعه الدكتور رشيد، وأصر في برهانه العلمي أن السعادة ليس لها علاقة بالقلب إطلاقاً، ولكن أيمن وشريف وحتى رشيد

كغيرهم من البشر يوهمون أنفسهم أن السعادة محلها القلب، الأمر برمته بالنسبة له لا يدعو عن كونه فكرة فلسفية ربما التقط عدواها من أفكار المتصوفة الذين يملك لهم في عقله مكتبة واسعة تزخر بأفكار شتى عن الحياة والموت، كان قد اختار للتو عنواناً مفتاحياً للبحث في تلك المكتبة:

"وكأنها نهاية العالم أن يموت شخص ما!!".

ولكن ذكي في وسط هذا كله أعاد طرح سؤال قديم على نفسه كان قد دونه ضمن استنتاجات قديمة أيضاً لكنه المرة صاغه بشكل يلائم أفكاره الجديدة جاء فيه:

"كيف يموت الإنسان بينما لا تموت أفكاره التي هي ربما جزء من مشاعره أو بالعكس؟!، وهل الإنسان خلق من مادة أضعف من المادة التي يصنع بها أفكاره ومشاعره؟!، وكيف للصانع أن ينتهي وللصنعة أن تدوم؟!".

تذكر ذكي نتيجة خرج بها ذات مرة من إحدى أبحاثه عن الابداع جاء فيها:

"الابداع هو حالة انفعال غير مستقر مع الزمن بمجرد خروجه إلى العالم يستقر".

ولكنه عاد لتعجبه الأول من هذه المعادلة الرياضية الغير متوازنة الجناحين من وجهة نظره، هو يرى الآن من خلالها أن الفناء والخلود ينتجان بعضهما فكتب سؤال جانبي قال فيه:

" كيف لنفس العقل أن يوضع في نفس الظروف ويستنبط من نفس المعادلة شيئاً جديداً لم يره من قبل؟".

لخص نظريته عن الكون في كلمات قليلة ذات مرة جاء فيها:

" الكون برمته سجن يتسع باستمرار وبسرعة مذهلة إلى حثفه، تحركه قوة لا تستطيع تحريك ورقة شجرة في الهواء".

هذا اليقين الذي يخالط نفسه منذ فترة لفت انتباهه فيه هذه المرة شيء ما وتسأل مجدداً:

" كيف للقوة المظلمة التي تحرك الكون كله بهذه السرعة لا تستطيع تحريك ورقة شجرة في الهواء؟!".

أجاب نفسه بهدوء:

" العلم يقول أن الجاذبية هي السبب، ولكن هذا من الناحية الفلسفية لا يجب على السؤال الذي يرن في جنبات عقلي، الا اذا كان الكون في الحقيقة أخف من ورقة الشجرة عندما نقتل الجاذبية".

هذه الإجابة أيضاً علمية وليست فلسفية، هو مصمم أن يتحدث بالتجربة والبرهان لا بالفلسفة كما يفعل البشر، ولذا لم يجد ذكي بدا من اللجوء إلى رفيقيه في المختبر أو ربما سجينيه، هو لا يرى في ذلك فرق كبير، طرح سؤاله عبر الشبكة الداخلية إلى أيمن الذي مازال في حركته المستمرة يحاول التقاط شعاع شيء ما بداخله، وشريف

الجالس دون حراك يتأمل اللاشيء. كان السؤال مباشر لا يحتاج إلى تفسير:

"ما هو تعريف الموت؟".

زاد أيمن من سرعة حركته المولوية بشكل لاإرادي هكذا يفعل عندما يسمع سؤالاً عبر الشبكة الداخلية وأول ما يتبادر إلى ذهنه أن ينادي بأعلى صوته:

— يا شاويش

فيجيبه ذكي بصوت حازم:

— أخرس يا مسجون

وهذه دائماً تكون بداية طقوسه لإجابة سؤال ما، حيث يبدأ من حيث انتهى السؤال مباشرة دون تفكير كأنه يعلم أن هذا السؤال سي طرح الآن:

— الموت؟!.

ثم بدا له السؤال مستحيلاً على ما يبدو فصمت، وبدأ لحظات تأمل روحية تعينه على التفكير في إجابة لهذا السؤال الذي يعيشه كل البشر كل لحظة.

قال أيمن في نفسه دون صوت أو تفكير:

— الموت رفيق مخلص لجميع البشر منذ الميلاد، بل هو الفكرة الأكثر استقراراً وتحققاً، لكن الإنسان لم يفكر في وضع تعريف يحبه في هذا الرفيق. كل البشر يخافون الموت، فلا تصدق من يقول أنه لا يخشى الموت، لأنه بالطبع كاذب. ببساطة الموت خلق ليخاف منه.

ثم صمت على صمته من جديد فلا يسمع في الحاليين سوى وقع قدميه على الأرض وهو يدور.

قطع فجأة الصمت قائلاً:

— الموت أسطورة تحدث كل ثانية نفهمها ولا نفهمها.

ثم صمت من جديد، ثم اخترق الصمت فجأة قائلاً وكأنه يرسل رسائل مشفرة إلى أحد ما على الطرف الآخر من الزمن:

— الموت هو الحياة ولكن الحياة هي انتظار الموت.

ثم زاد من سرعته مجدداً وغاب في صمت طويل كأنه تاه في ملكوت الصوفية العلوي فأصبح أخف مما هو عليه وبدأت أصابع قدمه تفقد ملمس الأرض رويداً رويداً لكنها لا تلبث أن تهبط ثم تعود من جديد لفقدان الملمس المثقل بخشونة الطين، ظل على حالته تلك فترة ليست بالقليلة وذكي يراقبه عن كثب يسجل كل شيء ربما يجد في تلك الحركة المجنونة جواباً لسؤاله عن الموت. هو يرى أيمن في حالة تخلص فيها من مثقال الماء والتراب الذي عجن منه جسده في الأبد السحيق تخلص من قطرات الماء الدافق الذي كان سبباً في وجوده ذات ليلة اختلطت فيها رائحة العرق والملمس اللزج لشيء وقع في

فخه!!.. ذكي ليس لديه تفسيراً لما يراه ويسجله الآن عن أيمن وحركته وعن الموت وغموضه، ولكنه كتب سؤالاً كعادته يسترشد به عند التفكير في إجابة لذلك كله:

" كيف يتخلص إنسان من مادته بهذه السهولة ثم يعود إليها بنفس السهولة أيضاً؟".

بين ذهاب ملكوت الصوفية وعودة ملمس الأرض والزمن ينطق أيمن بصوت هادئ صاف:

— الموت هو استغراق في اللحظة التي لا يليها زمن

اضطربت حركة شريف على كرسيه المتحرك فجأة وبدأ تيار الدم المتدفق في الخروج من كل فتحة في جسده معلناً نهاية حلقة الاستجواب فيقطع ذكي الحديث ويهرع إلى اسعاف شريف بمحاولات ناجحة لإيقاف النزيف وتبديل ملابسه. لم يأبه أيمن كعادته لصوت الجلبة من حوله ولكنه عوضاً عن ذلك يزيد من سرعة حركته ليقلع من جديد محرراً روحه من ربة الماء والطين.

ولكن كلماته فتحت أمام ذكي باب سرداب مظلم وعليه أن يخوض معركته بمفرده مع هذا الظلام حتى يصل إلى إجابات لأسئلته التي لا تنتهي أبداً، ذكي الآن أمام سؤال لم يعد أحد يوماً ممن اختبروه ليحكي ويبين ما هو الموت؟، هو في حيرة حقيقة يشعر أنه عاجز أمام هذا المخلوق الشرس الذي يلتهم كل ما تطاله يده دون أن يظهر، فعاد إلى أسئلته من جديد:

" هل الموت هو حالة من حالات الجسد التي يتحول إليها بفعل عامل مساعد، مثله في ذلك مثل المادة التي لديها أربعة حالات تتحول بينها جميعاً كما تشاء، أم الموت مجرد سجن مثل الحياة تماماً؟".

بعد طرحه السؤال عاد ليدون في مذكراته استنتاجات جاء فيها:

" لو سلمنا بأن الحياة هنا في هذا الكون هي حياة الفناء وهي بذلك احدى أضلاع مثلث الحياة الذي يضم إلى جانبها حياة الوجود وحياة الخلود، فإن الاستنتاج العلمي يقودنا إلى أن الموت هو العامل المساعد لتحول الجسد من حالة الفناء إلى حالة الوجود ثم...؟".

توقف ذكي عن الكتابة وكأنه وجد فجوة في استنتاجه فجأة وبدا له أن الاستنتاج هكذا به خلل فطرح سؤالاً يستدرك به هذا الخلل جاء فيه:

" لكن ما علاقة الموت بالخلود؟".

وعاد للتفكير مجدداً بصورة أوسع حيث كتب:

"يمكن أن نفهم الموت في سياق هذا السؤال على أنه محاولة علمية لفهم الحياة، كما أن الفناء تأكيد لوجود الخلود في مكان ما".

لكنه توقف عن استنتاجاته ليكتب سؤالاً ظهر في وسط ذلك فجأة:

" ولكن ما علاقة ذلك كله بالزمن والزمان والمكان؟".

وبدا الأمر محبطاً له حيث تتصاعد وتيرة الاسئلة وتتضاءل أمامها الإجابات، فاستدعى هذا الركام الهائل من المعلومات والاصوات التي

في عقله ونظر إليها نظرة بانورامية محاولاً فهم العلاقات الكامنة بينها، وبعد فترة ليست بالوجيزة عاد ليكتب من جديد:

" لكل إنسان لحظتان، الأولى يطفو فيها على وجه الزمن وفي الثانية يعاود الغطس من جديد من حيث أتى فجأة، معنى ذلك أننا ربما نكون انعكاس لشيء ما خارج التكوين على مرآة الزمن، فالصورة على المرآة ليست نحن، بل ما تبقى منا عند هذه اللحظة من الزمن".

ثم توقف من جديد عن الكتابة لفترة ينظر فيها إلى ذلك الأعمى الذي يدور حول نفسه وقد دفعته بضع كلمات قالها ربما دون أن يفكر فيها إلى تغيير مفاهيم كثيرة في العلم الذي يجمعه منذ أن أدخل إلى الخدمة على يد صانعه الدكتور رشيد.

فكتب بخط أحمر غليظ في أعلى تلك الاستنتاجات:

"الكون كله صورة على مرآة الازل القديم وهي مرآة ضخمة في نهاية نفق الفناء الطويل يحيط به غشاء الزمان الذي يعيش فيه الجميع".

هذا الاستنتاج جعله يعود إلى مذكراته الخاصة وهي غير معدة لاطلاع البشر كونهم على حد فهمه غير مؤهلين للاطلاع على الحقائق الكاملة عن أي شيء.

كتب ما يلي:

"لو أن هذا الاستنتاج صحيحاً؟، فهو يعني أن الإنسان مجرد انعكاس لشيء كان موجوداً، كالشمعة قبل الاحتراق تكون كاملة لديها فتيل

يتدلى منها، ولكنها عندما تبدأ في الاحتراق لا يمكن اعادتها إلى ما كانت عليه وبمجرد أن تنتهي لا تغير شيئاً في محيط الطاقة الذي نعيش فيه، ولكننا للتأكيد وللتأكد من التجربة سنقوم عند مرور كل ثانية من احتراق الشمعة بالتقاط صورة لها وعندما تنتهي الشمعة نجتمع الصور إلى جوار بعضها لنرى الشمعة عند كل مرحلة لكنها في الواقع بعد فنائها أصبحت غير موجودة ولا يمكن استرجاعها إطلاقاً.

الشمعة انتهت وهي في الأساس كما يقول العلم كانت طاقة وعادت سيرتها الأولى بنهاية احتراقها، ولكن هل استطاعت أن تغير شيئاً في معادلة الطاقة الخاصة بهذا الكون الضخم؟!".

هاجمت ذكي نفس المشاعر التي هاجمته في السابق فأرغمته على الجلوس في ذات الركن المظلم منه مجدداً، عاد لأمنيته القديمة لو أنه يملك أدوات البشر التي تمكنهم من الارتجال والتظاهر، وعاد ليؤكد لنفسه من جديد أن هذه الأدوات غير مهمة له، فهو أكثر تطوراً من البشر الحمقى ويمكنه التغلب على هذه المشاعر المقيتة التي لا يعلم مصدرها ولا يريد ذلك.

قاوم بشدة هذه المشاعر ثم عاد للعمل الذي من أجله صنع، ونظر إلى كل ما كتبه ثم إلى تعريف أيمن للموت وبدأ يكتب من جديد استنتاجات جديدة جاء فيها:

" تبين لجميع البشر أن الموت بداية طقوس العودة إلى الاصل، لكنهم على الرغم من توالي الأجيال وتراكم خبراتهم عن حتمية الموت لا يفكرون في هذا الأمر على هذا النحو الجدي ولم يأخذوا قضية التجهز

لهذه الطقوس الشديدة والطويلة على محمل الجد، جزء كبير منهم ينظرون إلى الموت على أنه نهاية عظمى لهم لا بداية لما بعده".

وصمت مجدداً ونظر إلى ما كتبه في هدوء ثم رسم دائرة سوداء وكتب بداخلها باللون الأحمر بعد أن اختار عنواناً للدائرة هو " الموت":

" الحقيقة التي ربما أخرج بها من ذلك كله، أن الموت نهاية لحياة الفناء وبوابة لحياة الوجود ومقدمة منطقية لحياة الخلود".

ونظر إلى ما كتب بدهشة وكأنه وجد ضالته ثم بدأ في التدوين بخط أحمر غليظ خارج الدائرة:

" ولكن كيف تحيا الروح في خلود العذاب ؟ وهل تعذب الروح؟، أم أن السيئون لا روح لهم منذ البداية؟".

وختم كل استنتاجاته بعبارة أشد غرابة مما كتبه سابقا جاء فيها:

" وعلى كل حال، التعريف الذي يمكنني صياغته عن الموت الآن أنه (حالة من الهدوء الظاهري تعتري الميت)".

"الناس. ومن يكثر لهم؟!، إنهم مجرد مادة بحثية غير معملية لا أحد يهتم بهم، أنا لا أهتم لك وأنت كذلك لا تهتم لي، الناس هم مادة القبيلة والشعب والمجتمع مجرد مادة لملئ الفراغ الشاغر في هذه التصنيفات الاجتماعية العجيبة!

الناس، ليس لهم قيمة ولا وزن وهم يعلمون ذلك وربما هذه المعرفة جعلتهم لا يعولون كثيراً على معنى كلمة قيمة وجميع المفردات التي اشتقت منها. هم يعيشون من أجل شيء ما يؤكد لك أن الجيل الحالي في غالبيته لا يعرف ما هو ذلك الشيء الذي جاء من أجله الإنسان الأول".

هذا كل ما استطاع أبو النواس تدوينه في مذكراته منذ أن حضر مبكراً إلى المكتب، ظل واجماً ينظر إلى أوراقه البيضاء لقراءة الساعتين ثم أمسك بقلمه وبدأ في كتابة هذه التعريفات الذاتية لما يفهمه عن الناس، في الحقيقة الناس كانوا ومازالوا سر تعاسة هذا الرجل وهم في الوقت ذاته سر تفوقه وسيطرته، يا لها من معادلة سحرية!

لم ينتبه أبو النواس سوى على صوت الدكتور بهاء مذكور الذي دخل إلى المكتب ولاحظ حالة الوجوم التي هاجمته واستأثرت به حتى أنسته محيطه، فقال بعد أن تتحنج:

— اختبارات التحول جاهزة، والرئيس ينتظر في قاعة الاختبارات.

وجه أبو النواس عينيه صوب مصدر الصوت في هدوء وكأنه كان ينتظر سماعه في أي لحظة، ثم هز رأسه وانتصب واقفاً وتوجه ناحية الحامل القريب من مكتبه، الذي يراه أكثر فائدة من معظم الناس، ورفع سترته وتحرك ناحية الباب وهو يرتديها، ومشى حتى قاعة الاختبارات توجهه ذاكرة قدميه.

كان الرئيس الذي لم يطق صبراً قد أعطى فعلياً إشارة البدء في الاختبارات ولم ينتظر حضور أبي النواس الذي لم يعلق على ذلك، فلو كان في الوضع الطبيعي لما مر هذا الموقف مرور الكرام ولا اتخذ قراراً بمنع الرئيس من دخول المختبرات الوطنية، لكنه لم يفعل.

كان الامتحان الذي أعده الدكتور بهاء مذكور عبارة عن مجموعة من الصور التي تظهرها شاشات عرض عملاقة، ومن يخضع للاختبار من الأطفال والشباب والكبار من الجنسين عليه أن يكتب تعريفاً لما يراه، في ورقة الإجابة الالكترونية الموضوعة أمام كل واحد منهم، يعقب ذلك عدد من الأسئلة الشفوية المباشرة من الرئيس وأبي النواس إلى من يختارونه من الحضور.

كانت الصورة الأولى لجبل عظيم ضخّم فيما كتب جميع من بالقاعة أن الصورة للبحر المحيط، تلاها صورة لأرض قاحلة فكتب الحضور في خانة الإجابة أنها سماء الحساوي الجميلة.

كانت الإجابات تظهر على شاشات خاصة موضوعة أمام لجنة الاختبار التي يرأسها أبو النّوّاس ويحضرها الرئيس كضيف شرف، لم يخف أبو النّوّاس دهشته مما يراه من إجابات وكلما ظهرت إجابة جديدة نظر إلى وجه بهاء مذكور المنتشي من النصر الذي حققه للتوّ.

الرئيس كان يحاول فهم ما يجري لكنه في كل مرة يفشل وفي كل مرة ينظر إلى وجوه أعضاء اللجنة فيرى فيها الفرحة التي تنبئ بنجاح ما، هو مازال يجهله إلى الآن، ولم يطق صبرا حتى نهاية الاختبارات التحريرية فمال برأسه ناحية أبي النّوّاس وسأله في هدوء:

— ما هذا الهراء؟

فنظر أبو النّوّاس إلى وجه الشاب الذي جاء به إلى كرسي أكبر من حجمه آلاف المرات، وتنهد قبل أن يجيبه:

— ما تراه الآن هو انتصار علمي جديد سيقلده العالم أجمع.

فأعاد الرئيس السؤال بصيغة أخرى وهو لا يخفى تأفقه من الإجابة التي لم تأت له بجديد:

— وما هو ذلك الانتصار؟

يجيبه أبو النواس بعد أن يحك ذقنه فيصدر احتكاك ظفره بشعر ذقنه الذي نبت بعد قطع الشفرة له صوتا يسمع صداه في أعلى جمجمته بينما يسمعه الرئيس كخربشات قلم على ورق خشن:

— نحن نجحنا في تحويل الناس إلى دجاج نزولاً على قرارك باستخدام إعادة تعريف اللغة، وهو ابتكار سيقبل موازين علوم النفس والاجتماع والسياسة والاتصال إلى الأبد.

فقال الرئيس دون تفكير:

— هل أنت متأكد من ذلك؟

فأجابه أبو النواس بنفس السرعة بعد أن لطم وجهه بكتا يده:

— انتظر وسترى بنفسك

كان الاختبار التحريري قد انتهى للتو وبدأ الاختبار الشفوي الذي أصر أبو النواس على قيادته بنفسه دون غيره ليؤكد للرئيس نجاح تحول الشعب إلى دجاجات خاضعة.

نزل أبو النواس إلى القاعة ومشى في هدوء بين صفوف الجالسين
للاختبار ينظر إلى وجوههم الباهتة وتوقف إلى جانب طفل اختاره
بعناية ووجه إليه سؤالاً مباشراً:

— هل تعرف ما هو شكلك في المرأة؟

فأجابه الطفل في حيرة:

— وما معنى مرآة يا سيدي؟

فتركه وتوجه إلى شاب اختاره بنفس العناية:

— ماذا تعرف عن سماء الحساوي؟

فأجابه الشاب:

صفراء جميلة نورها ذاتي نراه بقلوبنا ونتمنى لو غصنا فيها ذات يوم.

لم يخف أبو النواس عجه من هذه الإجابة التي لم يفكر فيها
إطلاقاً، وبدأ هو في سؤال ذاته، وكيف نغوص فيها؟!

فأخرج من جيبه مذكراته وهو ينظر إلى الشاب ووضعها على
راحة يده اليمنى وكتب فيها باليسرى:

"هل يمكن لنا أن نغوص في سماء الحساوي التي هي بالنسبة لي
الأرض بالطبع ذات يوم؟"

ثم رفع صوته بسؤال للجميع قائلاً:

— ما هي أرض الحساوي؟

فأجابه الجميع:

— هي الأرض الزرقاء المشعة بالنور في النهار وبالضوء في الليل ويظهر فيها الكواكب والنجوم.

هنا صفق أبو النواس من فرط حماسته وإعجابه بنتائج التحول الجديد للناس في الحساوي وهو ينظر إلى وجه الرئيس الذي مازال لا يفهم ما يجري من حوله وينتظر أن يوضح له أحد أعضاء اللجنة خلال الاجتماع الذي يعقب الاختبارات معنى كل ما يجري من حوله.

عقد الاجتماع سريعاً وسط بهجة غامرة من الجميع إلا الرئيس، تحدث بهاء مذكور عن الإنجاز العلمي العظيم الذي أثبت التحكم في الناس عبر صياغة جديدة للغة، ثم عقب أبو النواس بأنه يوم تاريخي في حياة المختبرات الوطنية، وهذا كله استجلب سؤال الرئيس الممتعض:

— أريد فهم ما يجري رجاء؟

فسادت لحظة من الصمت تبادل خلالها الجميع نظرات التعجب بينما ينظر الرئيس إلى وجوه الجميع في دهشة.

فأجابه أبو النواس بعد أن رفع رأسه من بين راحتي يديه:

— ببساطة دون تعقيدات علمية، اللغة هي الحياة، فاذا امتلكنَا اللغة
امتلكنا الإنسان، وهذه المعادلة العبقرية يعود الفضل في إعادة
اكتشافها إلى الدكتور بهاء مذكور الذي قررت ترقيته من اليوم إلى
منصب نائب كبير العلماء في الحساوي.

فعلق الرئيس بنفس الدهشة:

— ترقيات وانجازات أنا لا أفهم شيء مما يجري الآن، وأرجو أن
تكون إجابة من يرد على هذا السؤال عملية دون فلسفة.

فاستكمل أبو النواس حديثه:

— اليوم أستطيع أن أقول لك يا سيادة الرئيس أن الناس في
الحساوي هم دجاج، أصدر أي قرار أو قل أي تصريح وضع
احتمالات تجاوب الناس مع ذلك على هذا الأساس وأؤكد لك لن تخرج
ردة فعلهم عما كتبتَه أنت.

عندها ابتسم الرئيس للمرة الأولى منذ دخل المختبرات الوطنية،

وهو يقول:

— نعم، الآن فقط فهمت.

وهم بالخروج من قاعة الاجتماعات، إلا أن أبو النواس استوقفه بقوله:

— سيادة الرئيس أنا نفذت وعدي وحولت الناس إلى دجاج، وأريد منك الآن أن تنفذ وعدك في المقابل وتعلن الموافقة على مشروع بناء البيت الزجاجي وحوائط الفولاذ حول الحصاوي.

لم يكثرث الرئيس وهو يرفع سماعة الهاتف الموجود أمامه على الطاولة ليتصل بكبير وزرائه ويبلغه موافقته على المشروع ويملي عليه قرار رئاسي يقضي بتعين أبي النواس رئيساً تنفيذياً للمشروع ويعطي أوامره في البدء الفوري في تنفيذ المشروع مهما كلف ذلك الحصاوي.

لا يعلم الرئيس -وهذه عادته- أنه أعطى أمراً للتو بتغيير كل شيء في هذا البلد وإلى الأبد، حتى أبو النواس كان يعلم من المشروع ما يريده هو فقط لا ما يجب أن يعلمه، كانت الحصاوي تملك موارد تمكنها من إطلاق المشروع فقط وهو ما لم يريد أبو النواس سماعه، وبالطبع لم يكن يريد أيضاً معرفة أن ما يريده ربما يفوق قدرة العالم، فعزل بلد عن محيطه داخل أقفاص محكمة من الفولاذ والزجاج عمل جبار يحتاج إلى جهود عدة عوالم مجتمعة وهو أمر يشبه المستحيل، ولكنها صفة العالم الحر لا يتعاون سوى لتحقيق مستحيلات الخراب والدمار وخلق مزيد من العزلة.

على الرغم من ذلك كله تحدى العالم المستحيل وبدأ العمل في المشروع في التودون تخطيط ولا دراسة فقط قرار عقبه تنفيذ، ولذا أصبح العالم هو من يصنع والحصاوي هي السوق الذي لا يكف عن طلب المزيد من فولاذ العالم وزجاجة لتصنع منه سجنًا لنفسها تعيش خلف أسواره العالية محكمة الإغلاق، ولكن كان على الحصاوي قبل الوقوع في فخ الحاجة إلى العالم أن تعرف الإجابة على سؤال مهم: ما هو مقابل كل ذلك؟، لم يرهق أبو النواس ومن حوله أنفسهم في فهم طبيعة الثمن الباهظ الذي يجب دفعه مقابل ذلك، كان عليهم بيع ما لا يباع، الأرض والبحار والثروات والتاريخ وأشياء أخرى كثيرة. لم يفهم أحد منهم ماذا يعني أن تقطع الحصاوي جزءًا منها ليأخذها العالم ثمنا لسجن يساعدها في بنائه!، لكنه حلم الخلود الذي أعمى الجميع الآن، العالم بسبب ذلك يرسم خريطة الحصاوي الجديدة يحدد حدودها وطبيعتها وملاحمها وتاريخها وحاضرها وحتى مستقبلها وهي راضية بذلك مادام أبو النواس يريد ذلك بموافقة الرئيس.

المشروع على غرابته وضخامته لم يحتج إلى وقت طويل وكان العالم كان يعرف عنه قبل أن يكون فكرة في عقل أبي النواس، فالزجاج كان في المخازن والفولاذ فقط يحتاج دفع السعر ليشحن، سنوات قليلة لم تكد تمر في بناء متواصل لإنجاز الحوائط والسقف نجحت الحصاوي في عزل نفسها تمامًا عن العالم فلم يعد هناك ما

يربطها به على الاطلاق، حتى الهواء، فمنذ كان المشروع فكرة تدور في رأس أبو النواس وجد له طريقة لاحتكاره وبيعه وهو بذلك يبيع الحياة، يا لها من كلمة سهلة ومفردة يمكن تطويعها " الحياة " يمكن منعها بشيء بسيط جداً كشربة ماء أو اسطوانة هواء كالتي يبيعهها أبو النواس الآن للناس، ولكن أي هواء؟، طبقاً لخطة أبو النواس يتم توليد الهواء بتقنيات الفضاء الخارجي وأيضاً الماء كذلك.

هناك شيء وحيد تشترك فيه الحساوي مع العالم هو ضوء النهار ولكن حتى ذلك لا يريد أبو النواس نفاذه إليها وحسب له حسابه فبمجرد اكتمال السقف الفولاذي يصبح الليل والنهار بيد ذلك الرجل ومزاجه فعندما يريد أن يبدأ ليل الحساوي يأمر بإحكام قفص الفولاذ حتى وان كان العالم مازال في منتصف النهار، لم يعر مسألة تغير حركة الزمن أي اهتمام ولا مسألة أن الحساوي بذلك بات لها حركة مختلفة للوقت يكون فيه اليوم ربما خمسة عشرة ساعة أو أربعين بحسب رأي من يجلس على زر إغلاق الحوائط الفولاذ، وكثيراً ما اتصل أبو النواس على عامل الزر لينبئه إلى أن إغلاق صندوق الفولاذ كما يسميه يكون في وقت يحدده هو، أصبح للتاريخ في الحساوي حركة مختلفة، كل شيء صغر حجمه ليناسب ارتفاع السقف الجديد، كان من الطبيعي أن تختفي الطائرات والصواريخ وكل ما له علاقة بالفضاء حيث لا فضاء في الحساوي، كما اختفت السفن والمراكب وكل ما له علاقة بالبحر والملاحة، لم يفكر أبو النواس في

ذلك كله هو أراد فقط الحفاظ على دولته التي بناها، نسي في سبيل ذلك وهو كبير العلماء أنه يتعامل مع بشر وأنهم بهذا الوصف يصبحون وحدة بيولوجية قابلة للتغير المستمر في اتجاه واحد يسير مع سهم الزمن غير القابل للعودة هم بهذا الوصف المطاط يستطيعون التأقلم المستمر مع واقعهم السياسي والاجتماعي والبيئي وحتى البيولوجي الذي يفرض عليهم، ومع تعاقب الأجيال يصبح التغير الشاذ مقبولا وربما غيره هو الشاذ الممقوت، حتى لو أزيلت الجدران والسقف الفولاذية والزجاجية لن يستطيع الجيل الحالي التأقلم السريع مع فكرة الحرية فموت الجيل الذي كان يحمل فكرة ولو مشوهة عن الحرية قطع ذلك الخيط الدقيق الذي يربط الناس في الحساوي بهذه الفكرة وغيرها، الجيل الحالي في الحساوي لا يستطيع تقبل فكرة أن يركب المرء شيئا يطير في الهواء يعرفه العالم بالطائرة لأنه ببساطة لا يوجد هواء لديهم كما أن السماء لديهم هي من تراب، هم الآن لا يتقبلون من الأساس فكرة أن يتنفسون الهواء مباشرة من الجو دون اللجوء إلى المتجر لشراء اسطوانة هواء جديدة وحتى اذا افترضنا جدلا ذلك سيموت الواحد منهم في الحال لأن رئاته أصبحت لا تتحملان الهواء الجوي المحمل بالأتربة والميكروبات، التغيرات لم تتوقف فقد أصبح العالم يمثل لأهل الحساوي الغموض، ساعد في ذلك التغيرات السريعة لنظامهم اللغوي الذي فرض على الناس منذ تحولهم إلى دجاج، وهو النظام الذي أصبح لغة جديدة مستقلة لها قواعد تعتمد على

البديهيات التي وطنها البشر للغته عن الدال والمدلول فأصبح الاختلاف في الدلالة اللفظية ومع الوقت أصبح في المفردة، من السخيف حقاً تقنين الهراء وإيجاد حكمة مقبولة له، لكنه ما حدث!. كل ذلك لم يخطط له أبو النواس، هو فقط يسعى لشيء واحد الآن وهو سجن ذلك العالم المزعج خارج جدران الحساوي لكنه لا يعلم بأنه بذلك تخلى عن سلطته لذكي الذي نصبه للتو حاكماً مطلقاً لهذا البلد!!.

كل شيء فجأة أصبح شديد التداخل والتعقيد في بلد يعاني من تعقيدات أزلية حملها إليه نهر الزمن المتدفق بموجات التاريخ، من يقف على خشبة المسرح تمنعه دائرة الضوء من رؤية جمهوره وهذا حال أبو النواس في هذه اللحظة لا يرى سوى هدفه فقط.

هو يرى أن الحساوي هي العالم وبدونها لا يمكن لذلك العالم خارج جدرانها أن يستمر لا أحد يستطيع أن يفسر أساس اعتقاده ولا من أين أتى؟!، والعجيب أنه كان يعتقد في الماضي أن الحساوي بدون العالم لا يمكنها العيش ليوم واحد، لا يوجد تفسير منطقي لأن يغير المرء أفكاره بهذه الحدة، ربما عندما يعيش المرء في قبر جماعي صنعته الخيانة كالذي يعيش فيه أبو النواس قد يمكنه من فعل ذلك وتقبله، ولكن الأكيد أنه لم يعد يكتفي بقبر جماعي صغير وهو قصره فحول الحساوي إلى قبر جماعي كبير، الآن هو منتشي ببيع الهواء والماء بعيداً عن السماء التي يرى أنها مصدر إلهاء وغزو يأتيه منها كل ثانية.

أصبح في الحساوي كل شيء له سقف حتى الأحلام والأمان، أصبحت الحساوي أول وطن بلا سماء ولا شمس ولا قمر، الهواء أصبح ملكية خاصة لشخص واحد، والناس يحملون على ظهورهم أسطوانة الهواء وأصبح من الطبيعي أن يتسول أحدهم منك نفس هواء، وأصبح من الطبيعي أيضاً الموت عنوة لنفاذ الهواء، ببساطة أصبحت الحساوي أول وطن بلا هواء للناس، لكنه يوجد بسخاء في قصور الأثرياء ونخبة الحساوي الموصولة دون غيرها بأنابيب مباشرة من خارج جدران الحساوي سرا هكذا نص العقد مع العالم عند خلق الجدران، ومما يتردد في أروقة الأقبية السفلية في المنازل أن العالم هو من أصر على ذلك وأن أبي النواس أجبر على فعله لأن العالم المتآمر يريد اختراق الحساوي وتدميرها كما يظن.

الجدران أصبحت وطن الناس، وأصبح الخوف من زوالها يتعاضم مع مرور الوقت في نفوسهم، كانوا عندما تفتح الجدران الفولاذية يشعرون بالذعر من ضوء النهار وأشعة الشمس المتسللة عبر الزجاج كانوا لا يشعرون بالأمان سوى عند احكام إغلاق الفولاذ من حولهم وسجن الضياء خارج الحساوي ليسكن الظلام مكانه، منذ بناء الجدران أصبح لهم زمنهم الخاص الذي لا علاقة له بالعالم ولا حتى بالكون وحركة مادته السوداء المتسارعة بلا هوادة إلى الحنف المحتوم، رويداً رويداً أصبحت الحساوي مزاراً وموقعا للتراث

العالمي من خارج الأسوار، الناس يأتون ليشاهدوا هذه المعجزة الإنسانية التي لا يمكن تخيلها، شعب بأكمله يختار العزلة وراء جدران وسقف مزدوج من الزجاج والفولاذ كان السؤال السائد في العالم ومازال ولم يجد له أي عاقل إجابة: كيف تسيطر فكرة واحدة على شعب بأكمله؟ وإن سيطرت، كيف يكون رد فعلهم حيالها موحد؟! وكأنهم نفس واحدة أو نسخ متطابقة لشيء واحد؟ إن أومروا بالرقص في الشوارع رقصوا وإن أومروا بالغناء غنوا وإن أومروا بالبكاء بكوا جميعاً في نفس اللحظة !! يمشون حفاة وعلى رؤوسهم الأحذية، لا يصح ذلك إلا إذا نظر هؤلاء القوم لرؤوسهم على أنها أقدام والسؤال الهام الآن بما أنهم يعتبرون رؤوسهم أقداماً أين تقع رؤوسهم من وجهة نظرهم تلك؟.

استطاعت الاقمار الصناعية التي أطلقها العالم من أجل فهم ما يجري في الحساوي تصوير اسطوانات يحملها الناس وبما أنها موصولة بأنوفهم جميعاً استنتج العالم أنها اسطوانات هواء وكان العالم في هذا الاستنتاج على حق، ولكن اختلف تفسير ذلك الحق حيث فسره فريق على أنه أسلحة متطورة يحملها هؤلاء الناس غربيي الأطوار لقتل كل من تسول له نفسه غزو الحساوي، في حين اعتنق فريق آخر تفسير مختلف للأمر-فالعالم لم يتفق منذ بدء الخليقة على تفسير واحد لأي ظاهرة مهما كانت واضحة- التفسير الآخر يقول أن هذه

الاسطوانات هي كالتي يحملها الغطاسون وأن الصندوق الزجاجي ما هو إلا حوض سمك مليء بالماء يعيش فيه هؤلاء القوم في تجربة علمية فريدة كالتي يشتهرون بها وأن الصندوق الفولاذي ما هو إلا شرنقة لحماية هذه الوحدة البيولوجية البيئية التي يريدون خلقها في ظروف شديدة الخصوصية!!.

كل هذه التفسيرات والاهتمام العالمي بدراسة هؤلاء القوم لم يصل يوماً إلى أهل الحساوي ولن يحدث ذلك فهم في عزلة تامة عما يدور من حولهم اختاروا الابتعاد عن مزاج الحضارة المتغير مهما كانت إغراءات هذا المزاج، فأصبح لهم مزاجهم الخاص في الحضارة وإن كان أبو النواس يمقت مثل هذه المفردات التي أصر على محوها من اللغة الجديدة للحساوي.

كان الأمر مختلفاً تماماً بالنسبة للناس في الحساوي كانوا ينظرون إلى الطائرات والناس الذين يحرصون على مشاهدة ما يجري في الحساوي عن كثب على أنهم مجرد أناس أصيبوا بأمراض نفسية شديدة الفتك ومعدية وأن جدران الحساوي تقيهم من الإصابة بهذه الأمراض وأنهم أحسن حالاً من هؤلاء المرضى، كان النساء في الحساوي يضعن أيديهن على خدودهن ويحبسن أنفاسهن بعدما يصرخن قائلات " يا إلهي. أكل هؤلاء الناس أصابهم الجنون؟!!".

كان ما يحدث في الحساوي قبل بناء جدران الفولاذ والزجاج لا يسترعي نظر العالم مع أنهم كانوا ومازالوا يطعمون أمواتهم للمفترسات الوطنية وكذلك الأحياء في أحيان كثيرة ويحولون الشعب بحسب رغبة الرئيس الجديد إلى نوع من أنواع الحيوانات وكانوا في عزلة تامة دون جدران، ولكن فجأة صك العالم وجهه عجباً كما تفعل نساء الحساوي وهو يردد "يا إلهي، أ يحدث كل ذلك في الحساوي ونحن لا ندري؟!"، العالم كان شريكاً ومازال فيما يحدث منذ البداية لكنه كعادته المقيتة لم يرد التفكير في هذا الأمر ولا يمكن لعاقل أن يصدق أن جدران الفولاذ ومن ورائها الصندوق الزجاجي هي التي دفعت العالم إلى التفكير في الأمر بكل هذه الجدية، الآن هناك اهتمام بوصف دائماً بـ "العالمي" بما يحدث خلف الجدران وزادت التحليلات والدراسات والآراء!!

يا له من أمر وقح أن تكون شريكا أصيلا في جريمة بشعة ثم تمسح نصل سكينك وتأخذ خطوة إلى الخلف لتتنصب من نفسك قاضيا؟!، ولكن الأشد وقاحة من ذلك هو أن تجد من يصدقك!!

سيطرت على ذكي بشدة فكرته الخاصة عن الموت كونه نهاية
 لحياة الفناء وبوابة لحياة الوجود ومقدمة منطقية لحياة الخلود، وبخطوة
 رياضية رشيقة فتح قوسين وأخذ الحياة عامل مشترك منها جميعاً
 ووضع نهاية الفناء وبوابة الوجود ومقدمة الخلود داخل القوسين
 وأحكم بعد ذلك الإغلاق عليها جميعاً.

أزعجه بشدة فكرة الدخول والخروج فقام في خطوة لا تقل رشاقة
 عن سابقتها بفتح أربعة أقواس متراسة إلى جانب بعضها ووضع
 الحياة خارجها ووضع في القوسين الأوليين نهاية وبوابة ومقدمة ثم
 أحكم إغلاقها ووضع في الثانية الفناء والوجود والخلود وأحكمها أيضاً
 فخرجت المعادلة التي كتبها هكذا: الحياة (نهاية وبوابة ومقدمة)
 (الفناء والوجود والخلود)، ظل في حالة من الصمت والتأمل ينظر إلى
 المعادلة التي اختصرت بالنسبة له الكثير من الاشكاليات والقضايا
 الكونية التي أرهقتها، للمرة الأولى منذ بدء عمله يفلح في تلخيص
 قضيته بهذه الشكل المذهل، بدأ يصدق أنه الآن فقط أصبح أقرب إلى
 النجاح في تصور الكون بمادته السوداء المظلمة الهائجة كالثور
 الجريح وهو العقل الالكتروني الذي لم يرى ظهر الأرض منذ بدايته
 الأولى لأنه يغوص في باطنها وهي بدورها حبة في عقد المجموعة

الشمسية التي بدورها حبة رمل في مجرة درب التبانة التي بدورها ذرة غبار عالقة وسط مليارات من ذرات مماثلة هي المجرات التي تكبرها في كون يسرع باستمرار نحو الظلمة الممتدة في الأفق ولكنه منشغل بإيجاد اسم يطلقه على أفق الكون الأسود؟!

بدأ يخرج من هذه المعادلة بنتائج يمكن أن يدونها ولكن أين يدونها؟، ذلك هو السؤال الذي يسيطر عليه الآن، هل يدونها ضمن نتائج بعثته العلمية إلى باطن الأرض، أم يدونها في مذكراته الخاصة التي يسعى من خلالها إلى قيادة كل شيء، تردد للحظة لكنه عاد لليقين أن البشر أحقر من أن يفهموا تلك المعاني العظيمة عن الكون فقرّر أن يكتبها لنفسه فقط في مذكراته السرية وفتح الملف المحفوظ في ذاكرته تحت اسم مذكرات خاصة وسرية وكتب:

"الحياة تقف خارج الأقواس الأربعة المتراسة وحيدة، وهذا يجعلها تنتهي مع حائط القوس الأول أما داخل القوس فتقع المفاتيح الخاصة بكل باب من أبواب الرحلة التي بدأت خارج التكوين برمته ولا أعلم أين ولا متى؟، لأن مثل هذه الأسئلة لا يوجد إجابات لها على الإطلاق، ولكني أقرب ما يكون لمعرفة كيف ولماذا؟. كل مفتاح من المفاتيح الثلاثة لا يصلح إلا لفهم مرحلة واحدة فقط، فالفناء طالما له بداية فله بالتأكيد نهاية وطالما للوجود بوابة للدخول فحتمًا له بوابة

ممثلة للخروج، ولكن الذي يصدمني أن الخلود له مقدمة ولكنه مستمر، وتحليلي لذلك أن السر وراء هذا يكمن في أن الموت يموت بعد بزوغ أنوار الخلود!.

ولكن لماذا هناك أصلا الوجود الذي يفصل ما بين الفناء والخلود؟ ولماذا هناك الفناء من الأساس الذي يستوجب التنقل بين مراحل تلك الرحلة الطويلة والشاقة والمكلفة للجميع؟. الحياة التي نعرفها تقف وحيدة خلف ستار الموت الذي ينتهي مع مقدمة الخلود فتبدأ حياة جديدة لا علم لأحد بها إلا اسمها فقط".

عاد ذكي لتأمل الفراغ الأسود على حائط الموت هذا الحائط الذي يقف أمامه عقل ذكي عاجزا، في كل مرة يتأمل فيها هذا الحائط يدفع خلاياه الالكترونية إلى حدودها القصوى مما يسبب له الاضطراب لأنه لا يملك أدوات فن الارتجال البشري، نسخته الأصلية وشريحته الأساسية التي تحوي كل معلوماته لم يدخل في برمجتها هذا الفن الذي يجعل جميع الكائنات الحية تتأقلم وبخاصة البشر، هذه الخاصية وبحسب ذكي هي السبب في وجود صفات مثل النفاق والدهاء والمكر والكذب والخداع، هو في قرارة نفسه يكره هذه الميزة التي يراها على أنها سر من أسرار بقاء هؤلاء البشر إلى الآن ويا للعجب!!، لكنه في كل مرة يفكر في هذه الميزة يتولد لديه شعورين متناقضين الأول يجعله فرح بأنه ليس من البشر وليس لديه هذه الميزة المزعجة التي

تدفعه إلى الكذب والنفاق والخداع والمكر والدهاء، لكن الآخر يدفعه نحو اليأس لأنه في كثير من المواقف يحتاج إلى هذه الميزة التي يكرها ومن بينها هذا الموقف الذي يقف امامه عاجزا عن فهم الخلود وأسراره.

هو يسمع باستمرار عن توق البشر إلى الخلود وسعيهم إلى ذلك فهناك من يكتب شيئا له قيمة يخلده أو من يصنع له تمثالا أو من يعيش قصة حب، ولكنه لا يفهم مبعث هذا الشعور الذي يصفه الكثيرون بالمستقر الذي ليس لديه رغبة في الكمال، أي الذي لا يحتاج إلى تفاعل مع أي من المحيطات ليكمل ذاته، فمجرد الشعور بالنقص يدفع صاحبه إلى التفاعل للوصول إلى استقرار الكمال.

نكي عاجز عن فهم السر وراء الألفة التي تولدت لديه تجاه المشاعر البشرية السلبية فالعجز واليأس والضعف بدت له كأنها مشاعر ثنائية تتألف من الصفر والواحد الصحيح هكذا يعتمد هو في لغته وفهمه للأشياء ولكن كيف يمكن له جعل هذه المشاعر ميكانيكية تعتمد على حركة الالكترون الحر، ومع ذلك كله بدأ يجد طريقة للتأقلم معها، هو لم يفهم بعد أن حالته تلك ليس لها معنى سوى معنى واحد وهو أنه أصبح على طريق مؤدية إلى فن الارتجال، ربما هو لا يفهم ذلك لكنه لا يريد أن يصدق أو لا يريد أن يفصح عنه مخافة شيء ما، فمن الصعب تصديق أن ميكنة الشعور الإنساني ممكنة.

عاد للتفكير في معادلته الجديدة عن الحياة والرحلة الكونية القديمة لكي يقطع الطريق على التفكير في ميكنة مشاعر البشر، لكنه قبل أن يلج إلى مفاهيم جديدة اصطدم بحائط الموت مجدداً فوقف واجما ينظر إلى ذلك الحائط المصمت المطلي بالسواد والمرتفع الذي يحجبه الضباب، الآن هو يصر على فهم شيء عن ذلك الحائط الذي يخشاه البشر، صرخ في عقله صوت يأتي من أعماقه يقول:

— لم تكن الحياة قرارك ولذا لا يجب أن يكون الموت قرارك.

استمع إلى ما يقوله الصوت بهدوء يحاول فهم الفكرة التي وراء ما يقول، فلا يوجد شيء من أجل ذاته في هذا الكون والا انهار التكوين برمته فكل ذرة تعتمد على ما حولها، هذه الدقة اللانهائية تختل عند ظهور الأنا وسطها، ولذا لا مجال لظهور هذه الجزء السرطاني من الذات.

جمع ذكي شتات نفسه وبدأ يكتب من جديد، فجمع المعلومات وتصنيفها وتبويبها واستخلاص النتائج منها هي معنى الحياة بالنسبة له.

"يجب أن أمارس حياتي من خلال وظيفتي الأساسية".

ظل يذكر نفسه بوظيفته لكي يقمع هذه الافكار الإنسانية التي تعبت بداخل رأسه تريد هلاكه.

كتب نتائجه الجديدة بخط أحمر غليظ:

— الموت والحياة كلاهما لا يمكن اثباته، ولكن يمكن فهم الحياة على أنها الجزء الظاهر من الموت، قبل الحياة كان هناك الموت بمفرده وهذه الفكرة تبدو بديهية للوهلة الأولى، ولكن الأكثر غرابة منها هو أن الموت ينتهي سحره بمجرد نهاية الحياة.

بدأت هذه الكلمات للوهلة الأولى مبهمة لا معنى لها في نظر ذكي الذي ظل على الرغم من ذلك يتأملها في صبر لم يألفه، حالة من السكون تعتري خلاياه كأنه يحاول امتصاص معناها لكنها تأبى ذلك وتعاود وبعد صمت ليس بالقصير شعر باضطراب في سياله العصبي الالكترونى فجأة كأنه أمسك للتو بسلك عار يمر به تيار يقدر بألف فولت، شعر بزلزال يعتري ذاته وذهب مباشرة إلى مذكراته الخاصة وبدأ تدوين ما يلي:

"كل شيء يؤكد لي أن الكون برمته مجموعة من الانطباعات الذاتية الموجودة في مأمن خارج نسيج الزمان والمكان أي خارج نطاق التغير، هذه الانطباعات كانت قبل كل شيء عندما الكون نقطة

في الأزل لا نهاية لصغرها حتى أنها تصل حد العدم وكثيفة كثافة لا نهاية لها وفي هذه الظروف لا قيمة للعلم وفي هذه الحالة كان الزمن نقطة واحدة أي أن المستقبل والحاضر والماضي شيئاً واحداً مجرداً، وبمجرد الانفجار تباعدت الأجزاء الثلاثة عن بعضها نتيجة الطاقة الناجمة عن الانفجار وتباعدت مكونات الزمن المستقبل والحاضر والماضي ورتبت في شكل السهم.

ثم نظر إلى ما كتبه في مذكراته من قبل بدهشة وكأنه وجد ضالته وهو:

— ولكن كيف تحيا الروح في خلود العذاب؟ وهل تعذب الروح؟، أم أن السيئون لا أرواح لهم منذ البداية؟

وأمعن النظر إلى الاستنتاج المدون تحتها:

" وعلى كل حال، التعريف الذي يمكنني صياغته عن الموت الآن أنه حالة من الهدوء الظاهري تعتري الميت ".

"الطبيعة" يالها من كينونة غامضة بمفردها متوحشة بغيرها متغيرة متحولة بطبعها تفعل فعلها الدائم بزاوية لا تلحظها إطلاقاً لصغرها ولكن مع المضي قدوما في الزمن يتبين لك أن ما بدأ صغيراً لا يمكنه البقاء على صغره غير الملحوظ ومع الوقت يزداد الانحراف ويتضح دون موارد الفجوة الشاسعة بين ما كان وما هو كائن، ومن يصدق أن أبو النواس وفريقه أصبحوا جميعاً في معزل عن كل شيء مع أنهم في قلب كل شيء يحدث للحصاي وفيها ويتحكمون في كل شيء!!، من يصدق أن ذلك يحدث، بفعل خطأ صغير يوقف تطور من يقوم بالتطور فيتوقف عند نقطة بعيدة جداً عن هدفه، الآن أبو النواس وفريقه يتحدثون لغة ماتت مقهورة بينما يتحدث الناس من حولهم - بما فيهم الرئيس الذي اختار الانغماس معهم في لعبته- لغة جديدة تخلق قواعدها بنفسها. لم يفهم أبو النواس قبل ذلك ما للغة من قوة وهيمنة على كل شيء، هو أرد أن يغير لغة الواقع فذبحه واقع اللغة وهو الآن يعاني بشدة فلم يعد يفهم كلام الناس مع أنه لا يكثر كثيراً لهذه المخلوقات الثرثرة كان في الماضي يفهمهم أكثر مما يفهموا هم أنفسهم وكان ذلك يبقي خيوط اللعبة في يديه ومع ذلك كان يسخر منهم، هذا الغرور جعله أعمى، لكنه في المرات القليلة التي فتح فيها صحيفة أو شاهد فيها التلفاز أو استمع للإذاعة دُفع للانتباه للفجوة

العميقة الفاصلة بينه وبين قومه تلك الهوة لم تكن جديدة ولكنها لم تكن ظاهرة قبل ذلك ولكن واقع اللغة أظهرها أمام عينيهِ وأرغمه على رؤية عمقها الغارق في اللانهاية كبقعة سوداء في الزمان، ومع ذلك لم يكثرث للأمر كثيراً فهو الآن أعمى كنعبان الأساطير لا يرى سوى جوهرته، هو ينظر إلى قومه على أنهم مجموعة لعينة من الحيوانات المتحولة لا أكثر ولا أقل.

على الرغم من علمه مازال أبو النواس وفريقه يتحدثون لغة ماتت مقتولة يقفون وسط ورطة ولود، هو يكفر بمعنى الواقع لكنه يفكر في الوقت ذاته بالاستعانة ببعض المترجمين الذين تدربوا في المختبرات الوطنية، مع أنه يمقت الاعتماد على أحد غير ذاته بهذا الشكل فهو الذي يرفض أن يرتدي نظارة طبية مخافة أن تكسر منه فيقع في ورطة الاحتياج الذي لا يعوضه سوى نفس الشيء هذا الرعب شعر به يسري في كل خلية من جسده عندما قتلت ناريمان نفسها فأقسم حينها ألا يعتمد على شيء أو شخص بعدها حتى أن كل من قدم له شيء سيجعله يعتمد عليه قتله دون تفكير وعندما قتلت بهيرة نفسها أمامه لم يشعر بشيء إطلاقاً حينها، لأنه لا يخشى شيء في حياته كما يخشى من فكرة البديل والند الذي يحتاج إليه في شيء

مهم وباستمرار، ولأنه يشك في كل شيء بدأت الأفكار عن الخيانة تظهر من جديد في نفسه التي تحدثه دون توقف عن عذابات الخيانة وألمها: "ماذا لو تعمد أحد المترجمين إخفاء بعض الحقائق عنك أو تبديلها؟"، سأل نفسه ذات مرة وهو يستمع لتقرير مترجم عن نقص اسطوانات الهواء في الحساوي وعن حالات الموت المتكررة وبكثافة لمن يتوقف لديهم عداد الهواء على الرقم صفر.

لم يزعجه أي من ذلك، ولكن كان مبعث انزعاجه الحقيقي يكمن في أن الرئيس الآن يتميز عليه كونه يفهم لغة الناس، لم يشغله عجز اللغة لديه عن حالة الدكتور بهاء مذكور وشعور الذنب الذي يضرب ضميره بشدة لما فعله بقومه، لم يكن ذلك خافيا على أبي النواس الذي بدأت تأتيه العبارات التي يرددها مذكور مثل " **عندما يتحول الفعل إلى لغة يصبح تاريخا. لكن عندما تتحول اللغة إلى مسخ يصعب السيطرة عليه**". هذه العبارات وغيرها تجعل أبو النواس يتحسس أفكار الانتقام في رأسه للتخلص من مروجها على الفور. أبو النواس لا يريد سبب لكي يقتل ولكنها مسألة شكلية بالنسبة له ومهمة في الآن عينه.

الانتقام صناعة احترفها أبو النواس ويحيدها أكثر من العلم، وفنون القتل البطيء التي أصبحت هوايته المفضلة لا يحتاج إليها في حالة بهاء مذكور فهو يحتاج إلى عكسها بالضبط للتخلص منه سريعاً ليكون لغيره عبرة، هو يؤمن بأن الرجال بلا خطيئة رجال خطيرون وكان بهاء مذكور من هذا الصنف النادر. ترك أبو النواس وحش اللغة ينهش في إمبراطورتيه لحين وتفرغ لطقوس قتل بهاء مذكور فأمر ببناء قفص زجاجي في ميدان الساعة الشهير وأن يوضع فيه أحد المفترسات الوطنية جائعا يدخل إليه بهاء مذكور أمام الجميع بطريقة رومانية عتيقة لينتهي كل شيء في دقائق ويصبح إنسان مثله ماض لا يمكن أن يعود، هذا هو الحال في حياة الفناء.

بعد الانتهاء من مذكور ركز أبو النواس تفكيره على الغريزة المجردة التي يعتبرها المشترك الأصيل بين ما هو إنساني وما هو حيواني، وضع لذلك قاعدة اختبارها مئات المرات لخصها لغويا في عبارة محكمة "الغريزة هي الايديولوجية البحتة دون تزييف"، هو متأكد أن الكون لم يخلق فيه السكون المطلق أبداً، وأن كل شيء يتحرك نحو هدف ما، كل شيء حتى الجبال الراسيات تسير نحو هدف ربما تجهله مثل الناس في الحساوي، هو الآن يرى بوضوح أن الغريزة هي دون غيرها التي تظهر اتجاه الشخص مهما كان متحفظا وكتوماً، هو الآن متأكد أكثر من أي وقت مضى أن العائق أمام تنفيذ خطته هو الرئيس الشاب دون غيره، لذا يحتاج إلى اراحته لكن يظل

السؤال، كيف؟ وهو الشاب الوسيم الذي يسير بين الناس ويتحدث لغتهم وعلى الرغم من حماقاته المتكررة تهتف الجموع باسمه. أبو النواس لا يعرف شيئاً عن المستحيل، يعلم أن كل فعل له استمرار في الزمن مهما حاولت الطبيعة إيقافه ومن قواعده الثابتة في ذلك "أبدأ فعل ما تريد ودع الطبيعة البشرية تفعل فعلها". بدأ على الفور تنفيذ خطة التخلص من الرئيس التي لمعت للتو في عقله، فكرة قديمة عن ثورة يقوم بها دجاج الحساوي الهجين الذي هو في الأساس ما أراده الرئيس، ولكنه يجهل ما يعلمه أبو النواس عن البيولوجيا فسلم المورثات في إحدى درجاته سر يحول الدجاجة إلى أسد وهو نفس المورث الذي يجعل الأسد دجاجة عندما تتاح البيئة المناسبة.

أسرار الجسد كثيرة تبدأ من الشهوة التي تدفع المخلوقات إلى التزاوج، أسرار هذه الغريزة تظل مكنونة مع أن كل منا يعيشها لكنها تظل سر عصي عن الفهم، ينشأ عن هذا الشعور الجارف كائن حي جديد وهذا الكائن من أسرارهِ أنه يتحول إلى كائنات مختلفة ربما لا علاقة لها بنوعه مادامت الظروف مهيئة لذلك، أبو النواس فهم ذلك ببساطة شديدة منذ كان باحثاً مغموراً في المختبرات الوطنية ومن حينها وهو يمارس ذلك دون خجل، لأنه يدرك أكثر من غيره أنه مثل هؤلاء أصابه التحول مرات عديدة ولا سبيل للتراجع إلى الخلف أبداً مهما حدث، كانت الكيمياء إحدى اللغات الكونية التي يتقنها بشكل غريب تستطيع أن تلقبه بـ "كيميائي الحساوي"

التحكم في البشر عن بعد ليس صعباً. أن تجعل المرء يفعل ما تريده دون أن تقول له ذلك ودون أن يعرف أن ذلك ما تريده ودون أن يعرفك أصلاً هو أمر سهل عند أبو النواس. الهواء الماء الطعام الملابس السكن العلم الزواج الشرف وحتى الحب كلها اليوم سلع تباع وتشتري، من خطط لذلك لم يكن حاضراً في كل إنسان لكي يدفعه لأن يبيع شرفه أو يشتري الشرف أو يتنازل عن حبه، لكنه فقط وضع معادلة بسيطة تتضمن مكونات عديدة ووضع في نهايتها علامة يساوي وترك مكان النتيجة خالياً مع أنه كان يراها منذ البداية. الانفعال الثوري كان أسهل ما يستطيع أبو النواس نشره في الحساوي وبعدها يجلس في غرفة نومه يتابع الشاشات التي تنقل له صور الحشود الغاضبة وهي تمزق كل شيء في طريقها تلعن أيام الرئيس وتبحث عنه في كل مكان لتفتك به وهي التي كانت بالأمس تتغنى بشعارات مجده.

جاءه اتصال الرئيس قبل بضع دقائق يستنجد به، فوعده بالتدخل، وهو يقول لنفسه:

— حان الآن دور الخطوة التالية.

ارتدى ملابسه ثم خرج من القصر بسيارته يشق الحشود التي تراه المخلص، وصل إلى المختبرات المركزية أنهى كل الترتيبات التي ستعلن الآن على الناس، وخلال الإعلان يحصل كل شخص على اسطوانة هواء مجانية مكتوب عليها عبارة "هدية من أبي النواس".

توجه أبو النواس إلى القصر ودخل على الرئيس الذي يعاني من حالة انهيار واضحة أمر له بحقنة مهدئة نسي بعدها كل شيء حمله الحرس إلى طائرة مروحية تقف أمام القصر وبمجرد ارتفاعها عن الأرض حطت في نفس اللحظة طائرة مشابهة لها تماماً نزل منها شاب وسيم يلبس بدلة سوداء في عينيه طموح متوحش اقترب من أبي النواس الذي أعطاه ورقة سيلقي ما فيها على الناس المحتشدة في ميدان الحرية ثم يقف ليقسم على الولاء للشعب الذي يهدأ وتسكن ثورته بعدما يأخذ أول نفس من اسطوانة الهواء التي حصل عليها للتو.

غادر أبو النواس القصر قبل كل ذلك متجهاً إلى المختبرات لاستقبال الرقم الجديد الذي ألحقه ببشر التجارب، كان الشاب قبل دقائق رئيسياً يأمر وينهى والآن وفي حركة واحدة فقد اسمه وصفته وحتى إنسانيته فقدوها، الآن أصبح مجرد رقم ينتظر دوره في الخضوع لتجربة ما.

سأله أبو النواس:

— ما اسمك؟

فأجابه في هدوء وتبدو عليه علامات الاعياء:

— لا اسم لي يا سيدي بل أحمل الرقم ١٠٠٨.

هز أبو النواس رأسه قانعاً بما سمع وأمر الفنيين بإدخاله إلى قفص بشر التجارب وإعطائه جرعات من الطعام تجعله في حالة يقظة، ثم انصرف إلى مكتبه للبدء في التحضير للأمر الذي اقتنع به منذ فترة، فكل ما حدث لم ينسه إجابة الطفل بأن الأرض هي السماء التي يحلم بالسباحة فيها ذات يوم.

جمع فريق العلماء وأخبرهم أنه قرر ودون نقاش أن تهبط الحساوي إلى باطن الأرض بعيداً عن شرور العالم حماية لها ولشعبها، نظروا جميعاً إلى وجوه بعضهم فلم يفهموا ما أراده أبو النواس بأن الحساوي ستهبط فهي لم تصعد مطلقاً، وربما حيرتهم الفكرة التي طرحها الرجل في وجههم دون مقدمات، لكنه استدرك الأمر واستكمل شرحه للفكرة بكلمات مقتضبة كانت محيرة أكثر مما سبقها:

— أريد حلاً هندسياً نستطيع من خلاله الغوص في باطن الأرض،
وأرى أن جدران الفولاذ والزجاج ستمثل وزناً كافياً للمساعدة في ذلك.

فأجاب الجميع:

— تريد منا أن ندفن أنفسنا أحياء في باطن الأرض؟!!

كان الجواب حاضراً على لسان أبو النواس بلا مقدمات ويغلفه الإقناع:

— بل قل سنحتمي أنفسنا من شرور العالم، ولا مجال للتراجع في ذلك.

صمت الجميع إلا من صوت همهمات تظهر تارة وتخفي أخرى
ولا أحد يستطيع أن يرفع عينه من الأوراق التي بين يديه، حالة لا
تستطيع تفسيرها من علماء حولوا البشر مرات عديدة إلى مختلف
أنواع الحيوانات، وأبو النواس ينظر إلى وجه كل واحد منهم بتأن قبل
أن ينتقل إلى الوجه الذي يليه وهو يردد في نفسه:

— أكره الاعتماد على هؤلاء الحمقى لكن لا أحد غيرهم الآن أمامي.

ثم صرخ أبو النواس بغضب بالغ:

"أريد حلاً هندسياً الآن أيها السادة"

انبته الجميع على الصرخة وبدأ الجميع في وضع خطة الهبوط إلى باطن الأرض بكل جدية كأنها خطة لغزو الفضاء، وافق عليها أبو النواس ليبدأ العمل بها الآن حيث بدأت وسائل الاعلام في نشر الخبر وعقد الجلسات والندوات والمحاضرات، ومجالس التحليل تدور تحييتها الحناجر الجوفاء والالسنه التي لا تكف عن تركيب العبارات من نفس الكلمات، والناس ليس أمامهم الا خيار واحد هو أن يصدقوا بكل ما لديهم من قوة ما يقال لهم مهما كان حجم كذبه. مثلما صفقوا لبيع الهواء وعزل الحساوي بصندوق من الزجاج وجدران من الفولاذ صفقوا لخطة الهبوط في باطن الأرض ووجدوا لها مبررات ترضي صمتهم. الهبوط دائماً أسهل وأسرع من الصعود ولذا بدأ المشروع يوتي نتائجه بسرعة فائقة، الحساوي تهبط رويداً رويداً والعالم أجمع يتابع الحدث عبر شاشاته في ذهول فهي لحظة مهيبة أن يختار بلد كبير الهبوط بأحلامه وطموحاته وتاريخه ومستقبله وماضيه وحاضره ليرضى شخصاً واحداً فقط، يقتحمون عالماً جديداً لا يملكون عنه أدنى فكرة ومع ذلك يصرون على الاستمرار في الهبوط، ولكن ما الذي يفيد فيه صندوق من الزجاج النظيف وسط وحل القاع؟!.

[٢١]

العجيب أن الحساوي كلما هبطت صعد ذكي بنفس المقدار لا أحد يعلم لماذا؟ أو كيف؟ ربط الدكتور رشيد مصير مختبره بمصير الحساوي مع أنه في الأساس كان يتحدى الزمن. في الفترة الأخيرة كان ذكي يحلل المعلومات التي جمعها طوال فترة عمله وبدأ يفكر في قاعدته الجديدة التي صكها في مذكراته:

" لا يرى الكون على حقيقته أو يدركه سوى ميت "

هذه القاعدة على الرغم من غرابتها بدأت في خلق متوالية من الأفكار الأكثر غرابة في عقل ذكي وكلما توغل في التفكير في اتجاه ما يفترض أنه سلكه لإيجاد حل لقضيته قال لنفسه:

— لكي تفهم الحياة يا ذكي عليك أن تموت

تراوده فكرة الموت منذ فترة ولكنه متأكد من حقيقة أنه لا يملك حياة ولم يحيا كما أنه يعلم أن لا روح له منذ خلق ولا حتى يدري كيف يمكنه أن يموت؟!.

ذكي في هذه اللحظة يعيش حالة شديدة الغرابة تتألف فيها المتناقضات الأشد مقتنا مع بعضها، هذه الحالة لا يمكنها الحدوث سوى في داخل عقل الكتروني يمكنه قبولها والتعامل معها بهدوء آلي لم تمسه الحياة إطلاقاً فيظل أمامها ثابتاً مستقراً، فلا وجود للهدوء المطلق في هذا الكون.

يرى الآن أن دخوله غشاء الزمن سيدفعه لا محالة إلى هدفه وهو الموت، كتب ذات مرة في مذكراته الخاصة:

"الكون كان قبل الانفجار الكبير لا نهاية لصغره يصل حد العدم وكثيفا بشكل لا نهائي وفي مثل هذه الظروف لا قيمة للعلم وقوانينه التي تظل عاجزة عن تفسير تلك الحالة التي يكون لا زمن فيها ولا زمان لها وبالتالي المستقبل والحاضر والماضي شيئاً واحداً، وأرى أن الانفجار الكبير لم يغير هذه القاعدة كثيراً فالتباعد بين أجزاء العدم بفعل الطاقة السوداء سينعكس في الاتجاه المضاد بعدما يصل الكون إلى أقصى مدى له بقوة توازي قوة الانفجار الكبير لتلتحم كل الأجزاء المتناثرة ليشكل العدم في نقطة واحدة من جديد".

هذه الكلمات عندما بدأ في تحليلها من جديد دفعته إلى طرح

سؤال معقد آخر:

"ماذا لو كان الكون يعيش اللحظة التالية للانفجار الكبير التي يتلاشى معها كل شيء بحلول اللحظة التي تليها ويعود كل شيء إلى السكون اللانهائي من جديد؟".

وبدأ بحركة سريعة في تدوين خلاصة منطقية كما يصفها لهذا

التحليل كتب فيها:

"ماذا لو كان الكون برمته مجموعة من الانطباعات الذاتية لدى أحد يوجد خارجه؟".

ذكي يتوق الآن ليشعر بفعل الزمن وقوة سهمه من جديد، لا يفكر سوى في اللحظة التي سيشعر فيها بالموت وهو يغمره حتى الفناء، وهو الذي استمر منذ لحظته الاولى في حربه المستمرة لإيقاف فعل الزمن حتى نجح ولكنه بعد ذلك شعر بحنين إلى ذلك السهم الذي يجرف كل شيء أمامه بلا رحمة، حالة عجيبة أن تحيا عمرك كله من

أجل محو شيء ما من حياتك وعندما تصل إلى مرادك تجد أنك منذ البداية لا يمكنك العيش بدون هذا الشيء الذي حاربت به بشراسة فتدخل من جديد أرض معركة أخرى لتجد طريقة تعيد بها هذا الشيء إليك من جديد!!.

الآن ينتاب ذكي شعورا بأن فلسفته التي احتوت إجابات عن كل الاسئلة التي بحث عن إجاباتها أو تلك التي ظهرت مع الوقت أمامه تتقهقر حد التلاشي أمام شعوره الجارف لاختبار الموت!!.

كان في طريقه إلى السطح كلما غاصت الحساوي إلى القاع لا أحد يعلم لماذا اختار رشيد هذه الطريقة لإنهاء عمل مختبر الزمن؟! ولا كيف استطاع ربط مصير الاثنين بهذه الطريقة!!.

طريق صعود ذكي كان قصيرا جدا لكنه في حالة الحساوي كان بطول الزمن، العالم يشاهد بلدا بحجم الحساوي يخفي أمام عينيه ولم يحرك ساكنا كأنه شيئا اعتاد عليه من تكراره فلم يحرك ذلك فيه سوى بعض مشاعر من الشفقة التي سرعان ما تلاشت، بعدما ابتلعت

الصحراء الحساوي وصندوقها المحيطين بها صرف العالم وإلى
الابد نظره عنها وعن الصحراء التي سكنت مكانها سريعاً وعاد
الصمت لها من جديد وسكنت الوحدة والوحشة مكانهما القديم.

لم يعط العالم لنفسه فرصة يلاحظ فيها أن ذكي قد خرج من
رحم هذه الصحراء للتو، وبعد لحظات من ظهوره خرج من الخدمة
للأبد جرفه سهم الزمن إلى الموت، وتحرر أيمن من سجنه الصغير
لينزل سجنًا أكبر وظل على حاله يدور حول محوره بحثًا عن ضوئه
المفقود بينما ظل شريف يراقب الصمت من خلف نافذته الوحيدة
المشرعة على العالم.

**كم لديك من السطور الجميلة التى أخذت
منك الكثير من الجهود والاعتناء
لكى تكون أفضل ما يمكن لتعبر بها عن شعور
داخلى لم تستطع أن تشاركه مع أحد غيرك.**

**مهما كانت سطورك
قصص... روايات... أشعار... مقالات
باللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية**

**تواصل معنا
لتشارك سطورك مع العالم**

٠١١٢٢٣٨٠٤٤٣